

سچیر، الفت، لماوی

اُحارِثُ خَدَنِي

الرهاء

« إلى التي لولاها لم أكن شيئاً : إلى أمي . »

مقدمة

للدكتور طه حسين

إن صدق ظني فسيكون لهذا الكتاب الذي أقدمه إلى القراء شأن أى شأن . فقد قرأته مرتين وما أشك في أنى سأقرؤه مرة ومرة ، وما أظن أنى سأنصرف عنه وقد أرضيت حاجتى إلى قراءته ، وإنما ستصرفنى عنه كتب أخرى لا بد من أن تُقرأ ، وواجبات لا بد من أن تؤدى ، وهذه الظروف المختلفة التى تحول بينك وبين ما تريد .

ولو أنى حاولت أن أبين الأسباب التى تحجب إلى هذا الكتاب ولا تزهدنى فى قراءته مهما تتكرر ، لما وجدت ذلك سهلاً ولا يسيراً . فقد ألتبس هذه الأسباب فى هؤلاء الأشخاص الذين يتحدث إلينا الكتاب عنهم ، والذين يصورون لنا عصرا

من عصورنا القومية نحبه أشد الحب ونجهل من أمره غير قليل .
أو نكاد نجهل من أمره كل شيء : وهو هذا العصر الذى سبق
الاحتلال الأنجليزى واتصل حتى أدرك أوائله .

ففى هذا العصر كانت لمصر آمال واسعة وأمانى عراض ،
وكانت لها خطوات بعيدة موقفة إلى تحقيق الآمال وإدراك
الأمانى ، وكان فيها نشاط تحقق له القلوب بالحياة ، وتمتلىء له
النفوس ثقة وعزما ، ثم بينا هى ماضية فى طريقها يدفعها اليقين ،
وتبسم لها الأيام . وتثور من حولها المصاعب مختلفة معقدة ، فلا
تثنى لها هما ، ولا تقل لها عزما ؛ إذا سحابة مظلمة قائمة تسعى
إليها من وراء البحر فلا تحفل بها ولا تهتم لها ، بل لا تريدها
هذه السحابة إلا قوة وأيداً ، وإلا نشاطاً وجداً ، وإلا ثقة بالنفس
واطمئناناً إلى حسن الحظ .

ولكن السحابة تسعى متشاقلة متباطئة فى جد مع ذلك
وتصميم ، وقد قدمت بين يديها نذراً لم تسمع لها مصر ولم تصغ
إليها ، وما تزال السحابة فى سعيها تسبقها ظلمات ، وتكتنفها
ظلمات ، وتتبعها ظلمات ، حتى تبلغ وادى النيل فتطبق عليه إطباقاً ؛

وإذا هي تحجب عنه الضوء ، وتصد عنه النسيم ، وتضطره إلى
حياة فيها البؤس كل البؤس ، وفيها الشقاء كل الشقاء ، وفيها
العودة إلى ذل كانت مصر قد برئت منه ، وإلى خمول كانت
مصر قد حطت عن نفسها أثقاله ، وإلى يأس كانت مصر قد
فرجته عن نفسها تفرجاً ؛ وإذا نفوس تزهق ، ودماء تراق ،
وآمال تحطم ، وعزائم تفل ، وقلوب يملؤها القنوط ، ووجوه
يغشيها العبوس ، وثغور كانت تبتسم فمحي عنها الابتسام محواً ،
وإذا حزن متصل ويأس مقيم ، وإذا أمور مصر ليست إليها ،
وإذا هذه الأسباب التي كانت مصر تمدّها موقفة إلى مجد جديد
تقطع تقطيعاً ، وإذا السلاسل والأغلال تفرض على هذا الشعب
الذي كان قد حطم السلاسل والأغلال .

هذا العصر يصوره لنا الأشخاص الذين يتحدث عنهم هذا
الكتاب ، فأكثرهم كان يعمل في الجيش المصري ، في هذا
الجيش الذي لم يكد يتكون وينشط ويعمل حتى أظهر
الأعاجيب ، وأقنع الأمم المعاصرة بأن مصر خليفة أن يحسب
لها حساب حين ترضى ، وأن يحسب لها حساب حين تغضب ،

وأن يحسب لها حساب حين تريد .

وكان هؤلاء الأشخاص يستقبلون أعمالهم في الجيش راضين
مقتبطين واثقين ، وكان رضاهم واعتباطهم وثقتهم تشيع من حولهم
شعوراً حلواً هادئاً بالأمن والدعة وحسن الرجاء ؛ وكان مايعرض
لهم من الخطوب والأهوال يثير من حولهم أحياناً هذا الاضطراب
التقى الكريم الذى يملأ قلوب الأمهات والزوجات حين يعلمن
أن أبناءهن وأزواجهن يتعرضون للخطوب والأهوال ، ولكن
في سبيل عز الوطن وإقامة مجده الخالد . هذا الاضطراب التقى
الكريم الذى يحمل إلى القلوب الحزن والعزاء ، ويحمل إليها
اليأس والرجاء ، ويحمل إليها الجزع على من تفقد ، والأمل في
رفعة الوطن وفوزه بالمجد الطريف يضاف إلى المجد التليد .

هؤلاء الأشخاص الذين يتحدث عنهم الكتاب يحبونه
إلى ويرغبون فيهم ، ويحملون على أن أقرأ أبناءهم مرة ومرة ،
دون أن أشعر بالملل أو أن أحس الفتور .

وقد ألتبس هذه الأسباب عند أشخاص آخرين يتحدث
عنهم الكتاب ، لم يكونوا يعملون في الجيش ولا يتعرضون لأهوال

الحرب . وإنما كانوا يعيشون في المدينة هادئين مطمئنين ، وكانت لهم أخلاق وعادات قد بعد عهدنا بها ، وإن كان قريباً ، لشدة ما أثرت الحضارة الحديثة في حياتنا ، وقطعت أو كادت تقطع ما بيننا وبين ماضينا القريب جداً من الأسباب والصلوات . فنحن نجد لذة حين نقرأ أحاديث هؤلاء الناس ، وحين نرى من عاداتهم وأخلاقهم ما نرى ، وحين نحس ما كان بينهم من هذه المودة الصادقة الساذجة التي لا تفسدها المنافع ولا تغيرها الأهواء ، وحين نلمح هذه العقلية اليسيرة التي كانت تطمح طموحاً قوياً إلى المثل الأعلى ؛ ولكن في غير تكلف ولا تصنع ولا اعتداد بالنفس ، ولا غرور عما تأتي من الخير ولا امتنان بما تقدم من الجميل ، ولا كفر بما يسدى إليها من النعمة . ونحن نجد لذة حين نسمع هذه الأحاديث التي تصورها لنا كما رأينا آباءنا وأمهاتنا أو قريباً مما رأينا آباءنا وأمهاتنا حين كنا أطفالاً ، وحين كانت الحضارة الحديثة تنسل إلى بيوتنا انسلالاً ، وتنسل إلى نفوسنا أيضاً ، وتمد حولنا الحبال والشباك الخفية الدقيقة ، تأخذنا بها في المدرسة ، وتأخذنا بها في البيت ، وتأخذنا بها في الشارع حين

نمشي ، وتأخذنا بها في أُنديتنا حين نلعب . فنقدر ما بينهم وبيننا
من هذه الآماد التي كانت قريبة فبعدت . ومن هذه الصلات
التي كانت متينة فوهت وأصابها الضعف ، حتى أنا لنتقي من بقي
منهم فتتحدث إليه فلا يكاد يفهم عنا ، ونسمع له فلا نكاد
نفهم عنه . وإذا نحن محتاجون إلى أن نتكلف السذاجة والتبسط
لنصل إلى قلبه وعقله ، وإذا هو محتاج إلى أن يتكلف ما لا يطبق
من التعقيد ليبلغ قلوبنا وعقولنا ، وإذا نحن إلى قلوب الأجانب
من الأوروبيين وعقولهم أدنى منا إلى قلوب الشيوخ من المصريين
وعقولهم . وإذا نحن نتحدث إليهم العربية ، ولكننا في حاجة
إلى الترجمان ، على حين نتحدث إلى الأجانب لغتهم الأجنبية أو
اغتنا العربية فنفهم عنهم ويفهمون عنا في غير جهد ولا عناء .
نعم وقد ألتبس هذه الأسباب فيما يصوره لنا هذا الكتاب
من إقدام النفس المصرية على حياتنا الجديدة هذه في شيء من
الحذر والاحتياط ، وفي شيء من الشك والريبة . وفي كثير من
التمتع والمقاومة ، فنقارن بين اندفاعنا نحن إلى هذه الحياة الجديدة
في غير ائانة ولا روية ، وفي غير مهل ولا تفكير ، وبين إقبال

آبائنا عليها متحفظين مستانين ، لا يأخذون بحظهم منها إلا بعد تبصر وتدبر ، وإلا بعد تنخل واختيار ، كأنهم كانوا يعلمون حق العلم أن الانتقال من طور إلى طور ، والملاءمة بين حضارة وحضارة ، والتقريب بين حياة وحياة . كل ذلك ليس من الأشياء التي تستطيع أن تتم دون أن يسيطر عليها العقل ، وينظمها حسن التدبير والتفكير ، وأن شخصية الأفراد والجماعات أعز على الأفراد والجماعات وألصق بنفوسهم وأثبت فيها من أن تفنيها الرغبة في التجديد ، وإنما هي شيء يستطيع أن يرقى دون أن يفنى ، وأن يتطور ويتجدد دون أن يموت أو يبتذل ابتداءً .

نعم وقد ألتبس هذه الأسباب التي تحجب إلى الكتاب في هذه السذاجة الحلوة ، التي تبدأ مع الجملة الأولى من جمل الكتاب ، ولا تزال تترقرق فيه كما يترقرق الماء في الأغصان الخضرة النضرة فتنبعث في النفس حياة قوية ، وحنيناً ليس أقل منها قوة ، وتملأ العقل اقتناعاً بأن حياتنا المصرية القريبة ليست من الجفاء والجفوة ، وليست من الخشونة والغلظة ، وليست من الذواء والذبول بحيث يظن الشباب المتهاككون على كل جديد ، الذين تفتنهم مظاهر

الحضارة الحديثة ، وتخلب عقولهم وألبابهم . فاذا هم يندفعون إلى
أمام لا ينظرون إلى وراء ، وإذا هم يمحضون ولا يقفون من حين
إلى حين ، وإذا هم يقتحمون بحراً لجياً ، وقد قطعوا ما كان يصل
بينهم وبين الساحل من أسباب ، وإذا هم لا يدرون متى يصلون
ولا يعرفون كيف يرجعون .

وقد ألتبس هذه الأسباب التي تحجب إلى الكتاب في
هذه العبارة السهلة اليسيرة التي برئت من كل تكلف ،
وارتفعت عن كل تصنع ، وتحدثت إلى النفس المصرية وإلى
القلب المصرى بلغة النفس المصرية والقلب المصرى ، لم تستعز
ألفاظها ولا أساليبها من القدماء الذين بعد بينهم وبيننا العهد ،
ولم تتكاف محاكاة الأوروبيين الذين لم يتم بيننا وبينهم الامتزاج ؛
وإنما هي مصرية خالصة بل قاهرية خالصة ، لا تكره أن تشذ
أحياناً بعض الشذوذ عما ألفته الفصاحة المدرسية والبلاغة التعليمية
من التزام بعض الأوضاع والأشكال في إدارة الجمل ، وإقامة بناء
الكلام بعضه على بعض . ذلك لأن الكتاب مشتق من حياة
الأسرة المصرية القاهرية اشتقاقاً ، فهو قطعة منها ، وهو يصورها

فى معانيه كما يصورها فى ألفاظه وكما يصورها فى أساليبه . فأنى
لا تكاد تأخذ فى قراءته حتى يحيل إليك أنك لا تقرأ . وإنما
أنت تسمع وترى ، وأنت تظن أول الأمر أنك تسمع هذه الفتاة ،
وتراها تتلطف لجديتها وتدور حولها تلمس منها القصة والحديث ،
وأنت ترى هذه الجدة مستجيبة للفتاة فى حب وحنان ، متحدثة
إليها فى صدق وصراحة وإخلاص ؛ ولكن الحديث لا يلبث
أن يأخذك ، وإذا أنت تنسى الجدة والفتاة ، وترى هؤلاء
الأشخاص الذين يدور الحديث عليهم بين الجدة والفتاة يسعون
ويعملون وتسمعهم يجدون ويهزلون . وإذا أنت واحد منهم ،
وإذا أنت تشاركهم فى حياتهم وتشاطرهم آلامهم ولذاتهم . كل
ذلك دون أن تبذل جهداً أو تتحمل مشقة أو تتكلف عناء ،
لأن الكتاب قد أفرغ فى هذا اللفظ المصرى الحلو الذى نصطنعه
حين يتحدث بعضنا إلى بعض ، فلا نجد فى اصطناعه ولا فى فهمه
إعياء ولا عسراً .

قف عند قصة عائشة هذه التى تلقاك متى بدأت قراءة
الكتاب ، فسترى أول الأمر مطراً ينهمر ، ورعداً يخفق فى

أجواز الجو ، وستسمع ريحاً تعصف ، ورعداً يقصف : وسترى فتاة معجبة بهذا كله تنظر إليه وتستمتع به . وتكاد أن تتلقاه : وجدة مشفقة عليها تحذرهما وتدعوها وتغريها بالقصة والحديث . ثم استمع للجنة وقد أقبلت عليها الفتاة فهي تحدثها حديثاً فيه جمال الذكري وحزينها وألمها ، فقد أثارت هذه العاصفة في نفسها صورة عاصفة أخرى عصفت بالقاهرة منذ أعوام وأعوام ، ولكنها انتهت إلى حزن ياله من حزن : وأنت لا تكاد تلمح في هذا الحديث حتى تنسى العاصفة التي يضطرب بها الجو الآن ، والتي اضطرب بها الجو منذ أعوام وأعوام ، لأن الحديث قد أثار لك شخصاً غريباً في أول الأمر ولكنه مؤثر محزن مثير للعطف مثير للرتاء بعد قليل ؛ هو شخص عائشة هذه التي كانت ساذجة يسيرة العقل ، حلوة النفس ، صادقة الحب ، تضحك صديقاتها بسذاجتها ، وتضحك هي من هذه السذاجة ، تتعثر في غير عقبة ، وتضطرب لما لا يدعو إلى الاضطراب ، ثم يستبين لها الأمر فكانما يرفع عنها الغطاء . وإذا هي دهشة لتعثرها ، معجبة باضطرابها ، منكرة لهذا القصور الذي أضحك منها الصديقات وأضحكها من نفسها ،

وإذا هي مضحكة حين يستين هذا الأمر ، كما كانت مضحكة حين يختلط عليها الأمر . وانظر إلى هؤلاء الصديقات من حوفا يداعبنها ويلاعبها ويمكرون بها ويضحكن منها ويحببنها مع ذلك ، بل يحببنها لذلك حباً كله صدق وإخلاص . وكل هؤلاء النساء من هذه الطبقة الوسطى التي لا ترقى بها الثروة إلى أن تكون من الارستقراطية الحاكمة ، ولا يهبط بها الفقر إلى أن تكون من الرعية المحكومة ؛ وإنما هي طبقة بين هذا وذاك ، تستمتع بسعة في الحياة ولكنها سعة محدودة ، هي هذه الطبقة التي أخذت تظهر وترقى شيئاً فشيئاً منذ بدأ تاريخنا الحديث ، وأخذنا نكون الجيش وننظم الدواوين ، ونهيب أبناء الشعب للعمل في الجيش وفي الدواوين فتتغير أحوالهم قليلاً قليلاً ، يرقون إلى الترك الحاكمين بعض الشيء ويهبط إليهم الترك بعض الشيء ، ثم يلتقون ثم يمتزجون ، ثم يقفى العنصر التركي في العنصر المصري قليلاً قليلاً ، ثم تتكون هذه الطبقة التي تختصر النشاط المصري في السياسة والادارة والحرب والقضاء والتعليم منذ انتصف القرن الماضي . هؤلاء الصديقات من هذه الطبقة هن مصريات قد

تزوجن الأتراك أو هن أترك قد تزوجن المصريين ، ففهن تلتقى
النفس التركية والنفس المصرية ، وفهن تتمثل العقلية الشرقية ،
وقد أخذت تفتح فى استحياء لما تحمله إلينا الحضارة الغربية
من ألوان التجديد .

انظر إليهن وقد اجتمعن فى الضحى عند الجدة ، وهن
يتحدثن ويضحكن ويتندرن بعائشة ، ويتفكهن بما حفظن
لها من الأحاديث ، وهن ينتظرنها ، وقد دبرت لها أختها كيداً ،
فهن يتساءلن كيف تخلص من هذا الكيد . ثم انظر إليها ، وقد
أقبلت حائرة نائرة فهن يضحكن من حيرتها وثورتها . ثم يستبين
لها ما كان قد خفى عليها ، فاذا هى تشاركهن فى ضحك متصل ،
ينقضى النهار دون أن ينقضى . ولكن أسمعت الجدة ؟ أرايتها ؟
إنها قد رأت فيما يرى النائم شيئاً أزعجها وملاً قلبها رعباً وخوفاً ،
وهى تصدق الأحلام وتشفق من تعبيرها ، وهى تقص حلمها على
صديقاتها قبل مقدم عائشة ، لأن الحلم يتصل بعائشة وهى تلجأ
إلى الضحك وتنغمس فيه تدافع به طائف الليل ، هذا الذى ملأ
قلبها إشفاقاً وفرقاً ، ولكن الطائف يتراءى لها من حين إلى حين

فينغص عليها هذا الصفاء الذي كانت تود لو يخلص من كل شائبة ؛
وقد انقضى النهار وأقبل الليل ، ونشر على المدينة ظلمته وهدوءه ،
ولم يكن في المدينة سيارات ، ولم تكن أسباب الانتقال فيها يسيرة
ولا منظمة ، والصديقات مبتهجات بتقدم الليل وانتشار ظلمته ،
وتعسر الأبوة عليهن ، وهذه العاصفة تنور ، وهذه السحب
التراكمة قد أقبلت يسبقها البرق ويحدوها الرعد ، وهي تصب
ماءها على المدينة صبا ، فليس للصديقات بد من أن ينفقن ليلة
سعيدة مجتمعات ، قد فرض المطر عليهن هذا الاجتماع ، سيبتن الليلة
إذن عند صاحبتهن ، وسيسمرن ماوسعهن السمر ؛ وها هن أولاء
قد أوين إلى مضاجعهن ينفقن فيها ما بقى من الليل ، ولكن
عائشة لا تريد أن تستقبل النوم دون أن تؤدي صلاتها فقد كان
النساء في ذلك الوقت يصلين ويحرصن على الصلاة ، ولكن
ما بال عائشة مضطربة لا تستقبل الصلاة إلا انصرفت عنها
لتستقبلها من جديد ثم تنصرف عنها ؛ اسمع لها وهي تتحدث إلى
صديقتها الجدة شاكية مشفقة أن الشيطان يقوم بينها وبين القبلة
كلما استقبلت الصلاة ليصرفها عنها ، مخوفاً لها ساخراً منها ،

ملحاً في تخويفه وفي سخريته ، إن الأيام لتضمر لعائشة شراً ،
وإن الجدة لتنتظر هذا الشر وتكاد تتبينه ، ولكنها تكتم حلمها
عن عائشة وتخفيه عليها ، فلتكتمه إن شاءت ، ولتخفه إن
أحبت ، فالأيام كفيلة بأن تعلن الخفي وتظهر المكتوم ، وهي تبطئ
في ذلك أحياناً ؛ أما الآن فهي مسرعة لا تحب الإبطاء . تسمع أن
الباب يطرق ، من عسى أن يكون الطارق ؟ فقد تقدم الليل والعاصفة
ناثرة ، والمطر ينهمر انهمازاً . هو رسول الأيام الذي أقبل ينبئ
عائشة بأن ابنها قد مات في بعض الأقاليم . لقد تم تأويل الرؤيا
ولقد تبين مكر الشيطان ! ولقد قطعت الأسباب بين عائشة وبين
الضحك ، ووصلت أسباب أخرى بينها وبين الحزن . فانظر إليها
بعد ذلك ساذجة في حزنها كما كانت ساذجة في ابتهاجها ،
ولكنه حزن لا يمر بك دون أن يملأ نفسك لوعة وأسى ، لأنه
حزن ساذج لا تكلف فيه ، انظر إلى عائشة الحزينة . وقد آوت
إلى مضجعها وأخذ النوم يدنو منها ، وإذا ابنها الفقيد يترأى لها ،
وإذا هي تقرأ له الفاتحة ولا تكاد تأخذ في ذلك حتى تستبق إليها
أشباح من الموتى لا تكاد تحصى ، وكلها يطلب إليها أن تقرأ له

الفاحة ، كما قرأتها لابنها ، وهي تهدي الأشباح وتُعدها . ثم تنفق ليها في قراءة الفاحة للموتى !

أين تكون السداجة المؤثرة المصورة للنفس المصرية في آخر القرن الماضي إذا لم تكن في هذا الحديث وفي الأحاديث الأخرى ، التي قصتها علينا « سهير » في هذا الكتاب .

لقد كنت أريد أن أُلِمَّ بهذه الأحاديث الأخرى ، فهي ليست أقل روعة ولا جمالاً ولا تأثيراً من حديث عائشة ، ولكن أخشى أن أطيل وأن تبلغ المقدمة قدر الكتاب ، وما أظن أن الناس يأخذون هذا الكتاب ليقروا أنا ، وإنما هم يأخذونه ليقروا « سهير » ، فلسهير قراؤها والمعجبون بها على قرب عهدنا بالتحديث إلى الناس ، وأنا أحد هؤلاء القراء وأحد هؤلاء المعجبين . ومن يدري ؟ لعل إعجابي بسهير الكاتبة ، ورضاي عن سهير الطالبة من الأسباب التي تحجب إليّ هذا الكتاب . ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو أن هذا الإعجاب وهذا الرضى هما اللذان يمنعانني من أن أثنى على « سهير » بأكثر مما ينبغي لها من ثناء الأستاذ الذي لم يتعود منه طلابه إسرافاً في الثناء .

طه حسين

عصفت الريح عاتية في ليلة من ليالى الشتاء ،
وأرعدت السحب وأبرقت ، ونزل المطر كأنما فتحت
ينابيع السماء . وانزوى كل فى ركن داره يتلمس الدفء
من برد قارس ، والهدوء من اضطراب عصبي ، لا يرى
له مصدراً إلا تفاعل الانسان مع الطبيعة حوله . وجلست
جدتى قرب موقدها . وقد أشعلت لفافة تبغ تبغى
الهدوء والدفء .

ولكنى لم أستطع الهدوء فى مثل تلك الساعة ،
ففتحت الباب وخرجتُ إلى الشرفة أنظر البرق وأرى
المطر وأستنشق الهواء المفسول ، فأحس لكل هذا لذة
غريبة . وصاحت بى جدتى بعد برهة تنصح لى أن أدخل

لأن البرد قارس لا يحتمل ، فلا داعى للتعرض له لمجرد
منظر البرق أو المطر أو لاستنشاق الهواء .

وجدتني تعلم أن ليس يغرينى بطاعتها مثل وعدٍ
بقصة جديدة أو بحديث عن ماضيها ، فأسرعتُ ترغبني
فى الدخول ، قائلة إنها ستقص على ما كان فى ليلة مثل
هذه منذ أربعين عاماً أو تزيد .

— كنا يا ابنتى نحن أهل الزمن الأول لا نعرف
الكلفة ولا نتصنعها . فاذا أحيينا أحيينا باخلاص
وعاشرنا باخلاص ، لا نتكلف شيئاً بيننا وبين من نحب
ونعاشر . لم نكن كأهل هذا الزمن نتكلف فى كل شئ .
كنا لا نعرف هذه المدنية الجديدة التى تضطر المرء إلى
أن يصانع ويدارى ، وأن يلاطف ويترضى وأن يتكلف
ويتصنع

وابتسمتُ ، وعرفتُ جدتى سرا ابتسامتى ، فلطالما
تناقشنا حول هذا الموضوع : هى تزعم ما قالت وأنا أدافع

عن أهل هذا الزمن دفاع من يرتبط به . وكان أشد ما يدفعني في هذا النقاش أنى لست أحب تحسراً على ماض ولا تمنياً لرجعته . فلو لا سلطان الزمن ، ولو لا هذا السحر الذى يسبغه على الماضى ما تحسر ربع هؤلاء المتحسرين ولا تمنى أقل منهم رجعته .

وكانت جدتى مأخوذة بسحر هذا الماضى الذى أحبه يوم كان حاضراً ، وعاشت على ذكرياته بعد أن أصبح ماضياً ؛ فلم تمر ابتسامتى اكترائاً ، ومضت فى حديثها :

— وكانت أحب صديقتى إلى صديقتى عائشة ، كانت يا ابنتى سليمة النية ، طيبة القلب ، سمحة الطبع ، محبة العشرة ؛ كان قلبها أحسن ما فيها ، إن لم يكن هو كل ما كان فيها . أما عقلها فقد كان قاصراً بعض القصور ، يعوقها عن الفهم أحياناً ، وعن الحكم على الأمور غالباً ، وكنا — وخاصة أختها — نستغل فيها هذا الضعف لنضحك

منها ، لافى سخريه كما يفعل أهل اليوم ، وإنما كنا
نضحك لنضحكها معنا آخر الأمر ، لا نريد بذلك إلا
تمضية الوقت على أحسن ما نستطيع . فإذا ما مر الفصل
الذى دبرناه لها ، وفرغنا من الضحك منه بعد أن
أشركناها معنا كانت هى التى تذكرنا به لنضحك منه
مرات أخرى ، وكانت هى التى تلوم نفسها وتقول :
ما أشد غفلتى ، كيف لم أفهم !

— جاءتنى يوماً زائرة ، ولكنها لعذر لم تستطع أن
تمكث عندى كما كنا نحب ، فوعدت أن تأتيني فى الغد .
فلما كان الغد دخلت على أختها وهى لا تمالك نفسها من
شدة الضحك . قلت لها : ما بك وأين عائشة ؟ .. وكان
سؤالى عن عائشة فى لهفة شديدة . ذلك انى يا ابنتى رأيت
رؤيا فى تلك الليلة أفزعتنى . وأنت تعلمين بالتجربة
ما لأحلامى من أثر فى حقيقة حياتى ، فلما لم تأت عائشة
خفت عليها لأن ابنها مريض منذ أيام فى الريف حيث

يعمل . ورغم ضحك أختها لم أستطع طرد أفكارى
السود ، لكنها قطعت على أفكارى بقولها :

« سبقتها إليك ، ولقد دبرت لها فصلا مضحكا
للغاية ، هى لا تلبس إلا البرقع الأسود كما تعلمين ، وأنا
لا ألبس إلا الأبيض ، ولكنى اليوم أردت أن نضحك
منها ، فأخذت برقعها الأسود ولبسته أنا ، وتركت لها
البرقع الأبيض . وأؤكد لك أنها لن تعرف كيف تلبسه ،
وستظل فى حيرتها هذه طويلاً ، ولست أعرف على أى
شكل ستحل مشكلتها ، ولكنها ولا شك ستضحكننا
من حلها » .

— ومكثنا ننتظر عائشة من الصباح إلى قرب الظهر .
وكنت لا أزال يا ابنتى أصارع الأفكار فلا أقوى على
صرعها . ولاحظت صديقاتى كآبة كنت أخفيها حتى
لا أعكر عليهن صفو اليوم ، فقلن لى : مالك ، وما بك ؟
قلت : إن رؤيا رأيتهما مفرعة أليمة لم أستطع التخلص من

سلطانها وسلطان جوها إلى الآن . قلن : اللهم اجعله
خيراً ، وما رؤياك ؟ قلت : رؤيا مضطربة لا أذكر منها
إلا قليلاً ، فكأننا في منزلى هذا ، ولكن في غرفة غريبة
عنى كل الغرابة ، وإذا بعائشة لابسة لباساً أبيض من
رأسها إلى قدميها ، وقد وضعت يدها على خدها ، ووجهها
أصفر كالشمع ، وعيناها غائرتان من الألم ، وإذا بأُمى تلتفت
إلىّ وتقول : « مسكينه عائشة ، خرسها وقع » ثم لم أر
بعدها ولم أسمع شيئاً .

— وجمت صديقتى ، وكأن جو الرؤيا قد مسهن ،
فكل حديث عن الرؤى له سحر عجيب يقف السامع
أمامه واجماً . ولكن وجومنا لم يظل ، إذ دخلت علينا
عائشة ، وقد وضعت البرقع على فمها وأتفها وأمسكته
بيدها طول الطريق ، وهى محتدة صاحبة قائلة لأختها :
« الله يجزيك ، أخذت برقمى وتركت لى هذا ، لم
أعرف كيف ألبسه ، وأخذت أحاول ذلك بشتى الطرق ،

فتارة أشبكه وأخرى أعقله ، وأخيراً لم أجد حلاً إلا أنني
أمسكه هكذا طول الطريق ، وقد ضاقت أنفاسي
وآلمتني يدي .

— وكان منظرها يبعث على الضحك ، فلم نستطع
سماع كلامها إلا بصعوبة من شدة الضحك . وزاد في ضحكنا
شعور خفي بأننا تخلصنا من جو مكروه هو جو الرؤيا
التي كنت أقصها . ولكني يا ابنتي ظللت طول يومي
تحت تأثير رؤياي ، ولم يمح منظر عائشة برقعها الأبيض
منظرها وهي في لباسها الأبيض ، كما رأيته في المنام .

— وكانت يا ابنتي كلما ازدادت غيظاً زدنا ضحكاً ،
وأخيراً أريناها كيف تلبسه ، فضحكت معنا ، وأمضينا
اليوم في ضحك ، نتصور منظرها وهي داخلة علينا فنضحك
ملء أفواهنا . وتذكر هي معنا منظرها وحيرتها وما قاسته
وكيف كان الأمر أبسط مما قدرت ، فتشاركنا ضحكنا
بقلب طاهر ونفس نقية .

— وما وافى الغروب يا ابنتي حتى اكفهر الجو فجأة،
ثم أرعدت السماء وأمطرت . كان المطر ينزل من السماء
وكان بها سقاة يفرغون قربهم على الأرض . كانت ليلة
ويا لها من ليلة ، كانت كهذه تماماً ، لا زلت أذكرها
وأذكر حوادثها كأنها تمر الآن أمامي جزءاً جزءاً .

واغرورقت عينا جدتي من ألم الذكرى ، فتألمت معها
وإن لم أعرف سر ألمها . لقد كانت عواطفها تنتقل إلى
في يسر عجيب ، كأن أعصابنا مجموعة أسلاك كهربائية
واحدة تسيطر عليها احدانا ، لا فرق بين أن تكون
هي المسيطرة أو أنا . وظلمت مأخوذة بحديثها وشعورها ،
فلم أنطق حرفاً وإن كنت حاولت جهدى .

ولاحظت جدتي ألقى واضطرابي ومحاولتي ، فقربت
رأسي من صدرها وأسندته إليه بيدها في حنان وعطف .
ثم أمسكت ذقني ورفعت رأسي حتى تلاقت عيوننا من
خلل دمي ودمعها . ثم قالت بصوت خافت حزين :

— يكفيك الله يا ابنتي شرَّ ما لاقته عائشة منذ
تلك الليلة إلى آخر لياليها .

— كانت الليلة يا ابنتي كهذه حالكة أشد الحلوكة ،
والطقس مكفهر ، والمطر غزير ، والرعد عال مخيف .
وتعذر على صديقتي ليلتها الرجوع إلى منازلهن ، فقررن
المبيت عندي ، وفرحنا كلنا لهذا القرار . لم تكن هذه
أول ليلة بئنها عندي ، وإنما كانت واحدة من كثيرات
قبلها وكثيرات بعدها . كنا يا ابنتي ثلاث أسر أو أربعاً
تتصادق نساؤها ويتصادق رجالها صداقة متينة مغلصة ،
فكنا كلنا كأسرة واحدة نعيش كأخوات وإخوة . ولم
يكن المبيت عند إحدى الصديقات إلا شيئاً عادياً نتحل
له أتفه الأعذار ، حتى يطول اجتماعنا فيطول سمرنا
وسرورنا .

— وأخذنا في السمر والضحك إلى ساعة متأخرة من

الليل . وكانت أخت عائشة كلما أحست سكوتاً أو شبه
سكوت ، التفتت إلى أختها تغيظها بأشياء ، وأقوال لا تمالك
إثرها من الضحك ، لأنها لم تكن تستحق كل هذا الغيظ
أو الجذ الذي يستولى على عائشة منها . فمثلاً تقول لها أختها :
« أتدريين يا عائشة يا أختي أن الذي خلقني خلق الملك
والوزير ، والذي خلقك خلق الكاب والخنزير ؟ »
فتحتد عائشة وتغتاظ وتصيح بها :

« حرام عليك . اسكتي يا كافرة ! استغفر الله
استغفر الله . أنت يا بنت ! عقلك حصل فيه خلل ! »
فكنا لا نغل الضحك من هذا الكلام مهما تكرر .
— وتقدم بنا الليل ، فقمنا كل منا تنامس فراشها ،
وقامت عائشة تصلي صلاة العشاء ، لأنها تعودت أن
تصليها قبل نومها مباشرة . ولكنها جاءتني ، وكان
فراشها جنب فراشي ، وقالت لي في لهجة خوف ورهبة ،
وقد اصفر وجهها :

« غريبة جداً يا أختي كلما بدأت الصلاة اليوم أرى
الشیطان أمامی ، وقد لبس طرطوراً أحمر ، وهو فاغر فاه ،
يضحك ضحكة كأنه يستهزئ بى وبصلاتى . وأحس لو قفته
هذه سلطاناً عجيباً على . فأكرر وأكرر : اللهم أخز
الشیطان ، اللهم أخز الشیطان ، فتلاشى صورته ، لكن
ما تلبث أن تعود ! وهكذا أظل أحاول الصلاة عبثاً إلى
أن أمل فأتعجز على عجل وفى خوف ، ولكنى الآن لا أستطيع
الصلاة بحال . »

قلت لها : خیالات تتراءى لك لضعف أعصابك ،
أليس لك الآن أكثر من أسبوع وأنت مشغولة البال ،
مهمومة لمرض محمد ابنك ؟ .. وكدت أقص عليها رؤىای
لولا أن ارتفعت عینای إلى وجهها الأصفر من الخوف ،
فأشفقت عليها وسكت . وكأنما كانت تطارد أشباحاً
تراءت لها ، فقالت لى :

« كلا ، إن محمداً اليوم أحسن حالاً كما قال لى أبوه .

ولكنى لست أدري ما الذى يخفى عليه . كلما فكرت فيه أحسست انقباضاً لا أعرف له سبباً ، كأنما حجر ثقيل يضغط على قلبى ، فأكاد أئن من ألم الضغط . وعبثاً أحاول أن أطمئن نفسى بالواقع ، وعبثاً أكرر كلمات والده . . . ثم هذا الشيطان ماذا أفعل به ؟ . . . »

— وقالت جملتها الأخيرة بلهجتها الساذجة ، ونعمتها التى تصاحبها وقت الخيرة المضحكة ، وكدت أضحك لولا هذا الجو الذى كان يحيط بنا ، ولولا تلك الصفرة التى تملو وجه عائشة ، والخوف الذى يملكها .

— وأقنعها أخيراً بأن تترك الصلاة إلى الغد ، فكانت تحاورنى قائلة : ولكنى لم أؤجل فرضاً باختياري منذ بدأت الصلاة شابة إلى اليوم .

— نامت عائشة أو تناومت ، ونمت جانبها أو تمددت ، وظلت عيناي مفتوحتين متجهتين نحو عائشة فى فراشها أمامى . كنت لا أتبينها جيداً رغم حدة بصرى فى

الظلام ، وكنت أخاف أن آتى بأى حركة لا تبينها حتى لا تزعج ، فقد كانت المسكينة متوترة الأعصاب ، وجلة القلب مضطربة .

— كنت قد نسيت المطر والزوبعة يا ابنتى رغم شدتها وعتوها ، ولكن الآن وقد هدأت كل حركة عادت أعصابى إلى شىء من طبيعتها ، فأنصتُ إلى المطر ، وكان ما زال يهمى ، وإلى الريح وكانت تعصف هائجة نائرة . كنت أتخيل السحب فلا أرى من بينها إلا عائشة بلباسها الأبيض ووجهها الشمعى ويدها على ضرسها . عائشة كما رأيتهما فى الرؤيا . ومن بين أصوات الرياح والمطر والرعد رن صوت أمى ثانية حزينا هادئا متألما : « مسكينة عائشة ضرسها وقع » .

— وطرق باب الدار طارق ، فصحوت على صوته فزعة قلقة ، وفتحت النافذة أرقبه منها وأتسمع ما يقول ؛ قام اليه البواب ، واتخذت رسالته مجراها الطبيعى حتى

تصل إلى ، ولكنى كنت قد سمعتها من نفس الطارق ،
ووقفت لها واجهة لا أستطيع حراكاً . ترى ماذا وراءها ،
وإلى أين مستتھى بنا هذه الليلة اللیاء ؟

— ورن صوت عائشة بجانبى خائفاً وجلاً كالطفل
أتى أمراً منكراً وهو یعترف بذنبه مستحيياً نادماً : « ماذا
یا أختی ، ما الخبر ؟ »

— وحاولت ما استطعت أن أتکلم بصوت عادى ،
ولهجة لا يُستشف منها اضطراب أو خوف ، فقلت :
« إن زوجك يريدك حالاً » ، ولو كنت یا ابنتى قلت لها
إن عزرائیل جاء یطلب روحك لما اضطربت أكثر مما
اضطربت . قامت المسکينة نائرة خائفة تكرر وتكرر :
« قلبی قال لى ، یا ساتر یا رب ، قلبی شاعر من الصبح ؛
یا رب یا رحیم . »

— وهرولت المسکينة وهرولت وراءها ، وما
وصلنا دارها حتى صدمنا الواقع صدمة کادت تجن لها .

لقد مات محمد، ولم يؤخر المقدورَ خوف منه أو ترقب له .
أخذت المسكينة تشد شعرها وتلطم وجهها وتصيح . ثم
تعود إلى شيء من الهدوء ، إلى شيء من الاستسلام
اليأس الحزين ، وتكرر بصوت مسموع كأنما تحاول
أن تقنع نفسها فلا تقنع : « قضاؤك اللهم ، وليس
لقضائك مرد . إنا لله وإنا إليه راجعون » .

— تغيرت حال عائشة تغيراً تاماً منذ تلك الليلة .
وأصبحت يا ابنتي كثيرة الحيرة كثيرة الوجوم ، لا من
فصول دبرناها لها ، وإنما من فصول دبرها لها القدر ،
وكان أغلظ منا قلباً وأقسى طبعاً .

— كانت يا ابنتي كلما دخلت مأتماً تعزى أهله في
فقيد تنصح لمن ألا يستسلمن للحزن وتقول لمن :
« لا . الحزن كفر . حزنت على ابني الوحيد محمد ،
وكان الشيطان لا يدعني مرة ، كلما صليت يأتني إلى
بطرطوره الأحمر وضحكته الساخرة ، ويقف أمامي على

سجّاد الصلاة، ويظل يقول لى : « محمد كان جميلاً . محمد كان ابنك . كان حنوناً . محمد لم يكن لك غيره . كان له مستقبل باسم . ولكنه مات . مات . ربنا أخذه منك . محمد مات » حتى أترك الصلاة ، ولكم تراكم على من فروض لم أؤدها إلى اليوم .

« إيا كن والحزن . إني لم أعرف صلاة مطمئنة منذ مات محمد ، ولم أعرف نوماً هادئاً منذ روحته ؛ كلما حاولت النوم يأتيني محمد يطلب إلى أن أقرأ الفاتحة على روحه ، فما أكاد أتمها حتى يهجم على جيش من أموات الأهل والمعارف كلهم يصيحون : « والنبي الفاتحة لى ، والنبي الفاتحة لى » فأقول لهم : « واحداً واحداً ، انتظروا قليلاً » ولكنهم يتزاحمون ، فأقرأ لهذا ثم لذلك ، فلا أفرغ حتى الصباح .

إيا كن والحزن فهو كفر . . . »

— وهكذا كانت عائشة تستمر فى لهجتها الساذجة

الحزينة تقص على أهل الميت ما تلاقيه من حزن ، وكانت
السامعات يتوهمن أن بها مسًا ، وأن عقلها اختل فما
تكاد تقوم حتى يتها مسن :

« مسكينة عائشة ، عقلها ضاع » .

— ولكن لسوء حظ عائشة عقلها لم يضع .

ودوى الرعد ، وهى المطر ، وعصفت الريح ؛
فكرت جدتى :

— كانت يا ابنتى ليلة كهذه يوم مات محمد ، فاقرنى
معى الفاتحة على روحه وعلى روح أمه عائشة .

وما كدنا تم الفاتحة حتى تلاقت عيناي بعينى
جدتى فاذا هما مغرورقتان والدمع يتساقط منهما فى
هدوء وجلال . وأسندت جدتى رأسى إلى صدرها
وكررت ثانية :

— يكفيك الله يا ابنتى شر ما لاقتة عائشة .

بين الطفولة والشيخوخة جاذبية غريبة وتشابه عجيب . كلاهما قريب من هذا العالم المجهول الذى جئنا منه وسنعود إليه . وكلاهما قليل التقدير للحياة ، يكاد لا يحفل بها هذا عن جهل بها ، وذاك عن علم وتجربة ، هذا ييسم للحياة ابتسام الطرب والأمل والفرح ، وذاك ييسم لها ابتسام السخر واليأس والألم .

وكثيراً ما نرى فى خلق الشيخ ما يقربه من الطفولة ، كأنما الحلقة قد تمت وعادت إلى مبدئها من جديد ، وكثيراً ما يتصادق الشيخ والطفل صداقة حلوة طاهرة عميقة لازدة فيما تكلف أصحابها من شعور وإحساس . فإذا كانت هذه الصداقة تقويها رابطة أوثق كرابطة

النسب أو القرابة كانت أعمق وأدوم

كنت أفكر في هذا وأنا جالسة إلى مكتبي أقرأ
درسى . وكانت جدتي شغلى الشاغل منذ عدت من
المدرسة . فقد عدت لأجدها نائمة تشكو شيئاً من
الصداع . تعودت أن أرى جدتي دائماً بعد عودتي من
المدرسة لأقبلها قبله كانت اشتياقاً لها أول عهدي بالمدرسة
وبفراق جدتي، ثم أصبحت بعد أن صار لى صاحبات
آنس إليهن وإلى لعبهن عادة اعتدتها لا أرى لها سبباً،
ولكنى إن تركتها يوماً شعرت لتركها بشيء ولو قليل
من الضيق .

دق الجرس ، فأسرعت إلى جدتي أسألهما ما تريد ،
فسألتني وقد ظننتى خادمها : هل عادت البنت من المدرسة ؟
فأسرعتُ نحوها أقبلها كمادتي .

وأضاءت جدتي النور لتعرف الوقت من ساعتها
السحرية المعلقة على الحائط . كم كنت أحب هذه الساعة

لصغيرة ، وكم تقف إلى لمسها وإلى اللعب بها ، فكانت
جدتي تنهاني . وما أنا هذه اليوم أديرها يدي ، ولكني
ما زلت أحس أن لها شيئاً من السحر ، وما زلت أكنُّ
لها غير قليل من شعور يحسه الانسان نحو الأشياء التي
يألفها طفلاً فتذكره دوماً بأيام الطفولة المرحّة العذبة
الذكريات .

قالت جدتي ، وقد رأته أنظر إلى الساعة : ألا
تنامين ، إنها الثامنة ليلاً ؟ قلت : نعم ، بعد أن تقضى على
قصة أو حديثاً عن ماضيك . قالت : استعدي لنومك ،
وتعالى ريثما أتذكر لك حديثاً يعجبك ، فقد كبرت الآن
وأصبحت أحاديثي لك طفلة لا يلذ لك الآن إلا أقلها .
في ظلمة غرفة جدتي — وقد جلستُ جانبها على
السرير — أخذت جدتي تقول :

— كنا يا ابنتي من زمن بعيد في رشيد . كان جدك
رحمه الله قد تقل مع جزء من الجيش ليعمل هناك في

حصونها . وكان منزلنا هناك معروفاً لمكانة المرحوم زوجي . وكان أعيان رشيد — وقد أصبحوا أصدقاء جدك بعد أن أقمنا زمناً — يزورونه كثيراً ويوزورهم ، ويجتمع بهم في منزل أحدهم كلما استطاعوا أن يجتمعوا . كان بين هؤلاء رجل ثرى يملك منزلاً فخماً ، وحديقة واسعة مليئة بالفواكه والخضروات . في هذه الحديقة كثيراً ما ذهب أولادى ليلعبوا مع أبناء صاحب الدار .

— وكان ولدى اسماعيل أكثر أولادى حبا للعب . ولكنه كان ميالاً إلى الإتيلاف في لعبه ، ولكم نهيته ، ولكم حاولت معه باللين حيناً وبالشدة كثيراً ، فلم أفلح معه في كثير أو قليل . وظل طول عمره أكثر أولادى كلفاً باللعب وباغاضتى ، وظللت أعامله دون اخوته جميعاً بالشدة والعنف .

— كنا يا ابنتى لا نعرف نظريات في التربية ولا قواعد ، وإنما كنا نتقاد في تربية أبنائنا بفطرتنا ، وكانت

العصا عندنا أكبر دواء لكل أدواء الطفولة الخلقية
والنفسية ، فإن ألهمتنا الفطرة طريقاً غير العصا لنصل به
إلى ما نريد من الطفل العنيد المتلف المثير للغيظ ، كان
ذلك من حسن حظ الطفل ومن حسن حظنا ، وإلا
فإن العصا أقرب ملجأ وأيسره وأسرع فائدة .

— ذهب ابني اسماعيل كعادته يلعب في حديقة هذا
الثري ، ولكنه كان منذ أيام يحاور البستاني والبستاني
يحاوره ليصل إلى الكروم . كان العنب لا يزال فجاً
حصرماً ، ولكن للأطفال ولع خاص بالفاكهة الفجة
لعله قلة اصطبار عليها حتى تنضج . وحاول البستاني أن
يلهي اسماعيل بفاكهة أخرى وبوعود عن العنب يوم
ينضج فلم يفلح معه ، كما كنت لا أفلح أنا معه . وأخيراً
توعده مقسماً أنه إذا صعد إلى الكروم وقطع فرعاً
واحداً فسيشكوه إلى .

— ولكن اسماعيل إذا أراد لعباً أو فساداً فلن يعوقه

شئ، مهما عظم ، وكانت عناقيد العنب الخضراء المتدلّية
تزيده رغبة وتشعله عزمًا . فغافل البستاني وتسلق
السور ، فاذا ما كان فوق الكروم كسّر وقطّع وأكل
وأفسد ، ما شاء له الكسر والقطع والأكل والافساد .
وما إن هم بالنزول حتى لمح البستاني فتلقاه نازلاً على كتفيه
وحمله وسار به إلى .

— وبين منزلنا ومنزل صديق جدك هذا مسافة
غير قصيرة ، يعرفها المار على المنزل الذي كان يجلس فيه
جدك وأصدقاؤه . ومر البستاني حاملاً اسماعيل . وكان
اسماعيل منذ أن لمست رجلاه كتف البستاني يصيح
ويولول ، ويتضرع ويستغيث بكل مار أن يحميه مما
سيلاقيه منى . وما إن لمح أصدقاء جدك حتى صاح بهم :
« يا هوه ، حشوني . أمي حتموتني من الضرب » !
— والتفت صاحب الدار فعرف بستانيه ، وعرف
ابن صديقه فأدرك كل شئ . طالما شك البستاني إليه

من إتلاف اسماعيل الزرع ، وطالما حاول صاحب الدار أن يشكو إسماعيل لأبيه ، ولكنه كان يشفق عليه كل مرة . وها هو اسماعيل يسير إلى عقابه وإنه لعقاب حق استأهله من زمن بعيد .

— وَبَعْدُ الْبِسْتَانِي بِحَمْلِهِ النَّائِرُ الصَّائِحُ قَلِيلًا ، فَبَدَأَتْ الرَّأْفَةُ وَالشَّفَقَةُ تَدْبَانِ فِي قَلْبِ صَاحِبِ الدَّارِ مِنْ جَدِيدٍ .
وما كاد يصل البستاني إلى ويشكو اسماعيل ، وما كدت أم لأحضر العصا أضربه بها ، حتى جاءني خادم صاحب الدار يقول : إن سيده بالباب جاء بنفسه يستحلفني ألا أمدّ إلى اسماعيل يدًا .

— لَنْ تَتَصَوَّرَ يَا ابْنَتِي مِقْدَارَ غَيْظِي سَاعَتَهَا . فِهَذَا ابْنِي يَتْلَفُ مَالَ الْغَيْرِ ، بَلْ مَالَ الصَّدِيقِ ، بَعْدَ أَنْ حَاوَلْتُ مَعَهُ كَثِيرًا أَنْ أَصْرِفَهُ عَنْ عَادَةِ الْإِتْلَافِ هَذِهِ . ثُمَّ هَا هُوَذَا يَسِيرُ فِي الطَّرِيقِ الْعَامِ صَائِحًا أَنِّي سَأُمِيتُهُ مِنَ الضَّرْبِ أَمَامَ الْمَارِينَ وَأَمَامَ أَصْدِقَاءِ زَوْجِي . وَلَكِنْ هَذَا صَدِيقٌ

زوجى يستحلفنى ألا أضربه ، فإذا يكون ردى عليه ؟ لن يكون إلا القبول . فقبلت وانصرف السيد وخادمه ، وظللت أغلى من غيظى . أى عقاب أنزله بهذا الشيطان بعد أن أساء إلىَّ وإلى صديق زوجى ؟

— وفكرت وفكرت ، وأخيراً اهتديت إلى عقاب أعاقبه به دون أن أرجع فيما وعدت به الصديق . — كان الوقت عصراً ، وكانت الشمس قد مالت للمغيب . وكنا يا ابنتى فى هذا الزمن لا نعلم بكهرباء تريحنا وتوفر علينا كثيراً من المشاغل والمتاعب . كنا إذا غربت الشمس نعد إلى مصاييح تضاء بالبترول لنضيئها واحداً واحداً ، ثم نعلقها فى عمود أو على الحائط ليشع نورها على المكان كله . وكم كنا نقاسى من هذه المصاييح ! فهى سريعة التلف تحتاج إلى عناية ونظافة حتى تقوم بما يراد منها . ولكن هذا هين يسير ، وإنما الخوف كل الخوف من احتمال فرقعتها

وما تجره الفرقة من حريق ودمار .

— لست أطيل عليك الحديث حول هذه المصاييح

فقد وقلك الله ووقانا شرها . ولنعد إلى اسماعيل فاني إلى

اليوم بعد نحو أربعين عاماً لا أذكر هذه الحادثة إلا

اهتجت لها من جديد احتياجاً لا أفهم له سبباً ، قد يكون

ألم الذكرى وقد يكون شيئاً آخر لا أستطيع أن أحده .

— أنرنا المصاييح كلها وكان مصباح خاص نعلقه في

عمود وسط صحن الدار لينير لنا الممرات والمنافع . وما

كادت الخادم ترفع المصباح إلى مكانه من العمود حتى

اتقدت الفكرة في رأسي اتقاد الشرارة المفاجئة . ونظرت

إلى اسماعيل وقلت له : « سترى عقابك يا لعين بعد

العشاء » ، وأكل كل من بالدار واستعدوا للنوم ، فعمدت

إلى اسماعيل وعريته وعلقته في هذا العمود تحت

المصباح الذي يتهافت على نوره الناموس .

— كنت أسمع بهذه العقوبة من خدي وفي بعض

القصص . ولكنى لم أكن رأيتها أو جربتها قبل هذا
اليوم . وهاهى الفكرة تأتيني وأنا فى أشد الحاجة لها ،
فلم ألتجأ إلا إليها .

— وصرخ اسماعيل ، والحق يا ابنتى انى لم أطق سماع
صراخه . وكان جدك متغيباً عن منزله فى مهمة من مهام
الجيش ، فأغلقت أبواب الدار كلها ، ودخلت غرفتى
أحاول النوم . كان صراخ اسماعيل عالياً متواصلاً ، ثم سكنت
قليلاً قليلاً حتى لم يعد إلا صرخة خافتة قصيرة من آن
لآن . عجبت لأمره وقلت لعله ملّ الصراخ فاستراح .

— جاهدت وجاهدت بين قلبى وعقلى ، هذا ينكر
عملى ويهيج شفقتى ، وذاك يقول صبراً ان لم يكن العقاب
شديداً عاد إلى ذنبه ، وفى العودة عذاب لك وله . وأخيراً
انتصر قلبى وخرجت من غرفتى عازمة على فك اسماعيل
وغسله لينام . وكم كانت دهشتى وكم كان احتقارى لنفسى
واشمزازى منها !

— كان اسماعيل معلقاً في العمود ، وعلى الأرض جلستُ
خادمه « صباح » وقد بلل الدمع جلبابها ووجهها ونحرها
وهي لا تستطيع مسحه لأن يداها كانتا تهشان الناموس
عن جسم اسماعيل . « منشة » في كل يد تهش وتهش ،
والدمع ينهمر ، وصوتها الخافت المتألم يردد كل حين :
« معليشي ياسيدى ! الليل قرب ينتهى » ، واسماعيل
لا يجيبها إلا بقوله :

« هشى يا صباح والنبي ، هشى هنا ... وهنا »

— هذه الجارية ذات القلب الحساس لم تنم رغم
حاجتها إلى النوم ، وجازفت باحتمال قيامى ورؤيتها ، وما
ستلاقى إذا ما وجدتها تتداخل في أمر من أمورى . كل
هذا من أجل صبي لاعبته صغيراً ، وعاشرته بضع سنوات ،
وأنا أمه التي حملته جنيناً ، وأرضعته طفلاً ، وربته صبيّاً ،
ظلمت أحاول النوم ولا أعبأ بصراخه . أية قسوة !
ما أحقر قلبي أمام قلب هذه الجارية !

— وقفتُ مبهوتة مغيظة من نفسي أحتقرها ، وأنا

لا أرفع عيني عن « صباح » المبللة بالدمع التي لم تقف يداها
عن الهش كأنها آلة مسخرة ، وكادت دمعة تنهمر من
عيني لولا أن لمحتني « صباح » فصاحت بي :

« اطرديني يا ستي ، لكن والنبي فكي سيدي

اسماعيل » .

— لم أستطع أن أقول كلمة واحدة . وإنما ذهبت

نحو اسماعيل ، فأنزلته وأخذته إلى الحمام أغسله . وما زال
المسكين يبكي ، فقد كان جسمه كله ملتهباً ساخناً وارماً .

— منذ ذلك اليوم أكبرت « صباح » واحتلت منزلة

جديدة في قلبي . ما رأيته بعدها يوماً الا رأيته كما كانت
في تلك الليلة تهش الناموس عن ولدي ، وتواسيه ودمعها
يجرى من شدة الألم له .

وصمتت جدتي كأنما الذكري تعاودها . فقلت :

« ولكن أين « صباح » الآن يا جدتي ؟ » قالت :

— ما كنت لأخرجها من داري يا ابنتي ،
ولو قدموا لي أحسن جوارى العالم ، وأقدرهن على
خدمتي . ولكن شاءت لها الظروف أن يكون خروجها
من عندي أهون ما ينزل بها ، فقبلته مضطرة . ولقد
جازاها الله على وفائها لي ، ولولدي اسماعيل خير جزاء .

— سرقت من جدك أشياء بعد هذه الحادثة بأعوام
فاتهموها . وكانت الظروف قاسية عليها ، فاعتقد كل
من بالدار أنها هي السارقة . ولم أجد بين كل هذه الظروف
ظرفاً واحداً يبرئ « صباح » أو يبعد عنها التهمة ولو قليلاً .

قلبي كان كل دليلي على أنها لم تكن هي السارقة . ولكن
احساس القلب إن لم يستند إلى شيء عقلي أو مادي لم
يعره أهل الدنيا اهتماماً فباعها جدك لأنها سارقة ،
فخرجت ودمعها على خدها ، ولسانها يردد : الله يعلم براءتي
وهو كفيل بالانتقام .

— مات جدك بعدها بأعوام ، فبحثت عن « صباح »
أغفر لها ذنبها ، وأعيدتها إلى من جديد . ولكن القدر
كان قد سبقني فاستغفرها أو غفر لها . أصبحت « صباح »
سيدة زوج رجل ثرى كان قد ماتت زوجته وله منها
أولاد . فلما آانس في « صباح » حنواً وعطفاً على أولاده
تزوجها وأغدق عليها من ماله وعطفه ما تستحق .

كان النوم قد غلبني أخيراً بعد أن جاهدت طويلاً
لأسمع تمام حديث جدتي ، فقممت إلى فراشي ، وقد
بدأت « صباح » وقصتها تسيطران على أحلامي .

« كم يستطيع هذا الجيش ، لكنه مكبل مغلول
لا يقوى على شيء ، كالأسد المحبوس فى قفص الحديد ،
لا يستطيع إلا الزئير » . هكذا قال لى أستاذى يا جدتى ،
وقد مر بنا الجيش المصرى يوماً ، فرأيتـه ينظر للجند
متألماً يغالب دمه . منذ ذلك اليوم لا يمر بى فريق من
الجند أو أسمع موسيقاهم حتى يغالبنى دمعى وتثور نفسى .
وأود لو يتاح لى سبيل الانتقام ممن أوصلوا جيشنا إلى
ما هو عليه

هذا سبب اضطرابى ، فما بكاؤك أنت يا جدتى
كلما مر الجيش بك أو سمعت موسيقاه ؟
قالت جدتى : يذكرك الجيش المصرى يا ابنتى

بما يستطيع لو لم يضغط عليه الأجنبي بسلطانه ، ولكنه
يذكرني بكثير من هذا وبأكثر منه . يذكرني بجهاد
أبنائي في سبيل الوطن ، وبهذا القلق والألم اللذين كنت
أقاسيهما أياماً بلياليها ، لا أعرف معنى للهدوء أو راحة
البال . ثم هو يذكرني أولاً ، وقبل كل شيء ، بدم ابني
رأفت المهدر غدرًا . يذكرني برأفت الشهيد الذي
لا أعرف له قبراً أبالله بدمعي فأجد في هذا بعض الشفاء .
كنت سمعت حديث رأفت مراراً من قبل ،
ولكنني أشواق إليه دائماً . وهممت أن أطلب من جدتي
أن تعيده عليّ مرة أخرى ، ولكنني خوف إثارة شجونها
وجمت ، فاذا هي تندفع فيه ، وكأنما كانت تحس في إعادته
شيئاً من التنفيس عن جرح لم تبرئه السنين وإن خففت
من حرأله .

ومسحت جدتي دموعاً كانت مازالت تريد السقوط

من عينيها وقالت :

— كنا يا ابنتى فى منزلنا هذا وهو قريب كما ترين
من ثكنات الجيش الانجليزى ، ولم تكن العباسية كما
هى الآن مليئة بالبيوت والعمارات ، وإنما كانت بيوتها
قليلة متشورة هنا وهناك ، بين البيت والبيت مسافة بعيدة ،
كان بيتنا هذا والبيت الذى يجاورنا يكادان يكونان
الوحيدين فى كل تلك المنطقة ، فلا ترى العين على مدى
البصر سواهما شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا .

— وكان جو الوطن إذ ذاك كله غيوم كثيفة قلقة
مضطربة ؛ فتوفيق باشا معتصم بسرايه فى رأس التين ،
وعرابى باشا من ورائه الجيش ، وقد تجسست آمال
المصريين ومطالبهم فى شخصه ، والأجانب والانجليز
خاصة يرون الفرصة قد سنحت لتدخلهم فى شؤون البلاد
وأخذ ما يمكن أخذه منها . وكان لى إذ ذاك ثلاثة أبناء
فى الجيش : اثنان فى حرس توفيق باشا وواحد فى جيش
عرابى باشا .

— ولم يكن الجيش يا ابنتى كهذه الأيام يُدخلون فيه كل من يثسوا منه في العلم أو العمل . قد ارتقوا في اختيارهم حديثاً ، وأصبحوا يشترطون في داخلي الجيش حيازتهم الشهادات ، ولكن أيام أبنائى كانوا يأخذونهم من مدارسهم العالية بعد أن يكونوا قد درسوا بها سنتين أو ثلاثاً .

وظلت جدتى تتكلم عن أبنائها ، وكم سنة درس كل واحد منهم في دراسته العالية ، وأى فرع كان قد تخصص فيه ، ولكنى كنت أفكر بعيداً عن قولها . كنت أفكر في هذه الظاهرة ، ظاهرة شروط القبول في الجيش ، وأخيراً وصلت ... سياسة الاستعمار ! ما أهولها ! وما أدنا السبل التى يصل بها المستعمر إلى ما يريد من المستعمرة ! كانوا يُدخلون مدرسة الحرية أو البوليس كل من يثس منه ، لأنهم لم يكونوا قد شكّلوا أهل البلد كما يريدون بعد . كانوا يأخذون شر من في هذا المجتمع

الذى لم يدب فيه الفساد بعد . فلما أيقنوا من فساد المجتمع ،
وأدخلوا نظام المدارس تحت سلطانهم وجعلوها قوالب
يصبون فيها المصريين كما يريدون ، واستيقنوا أن المدارس
أصبحت تخرج لهم نوعا من الشباب كالذى كانوا يقبلونه ،
اشتراطوا الشهادات وشروطاً أخرى ليضيقوا العدد ، فلم
يدعوا باب الحرية مفتوحاً لكل من يريد ، لئلا يتوفر
العدد ، ولئلا يدخل فيها من قد يصبح زعيماً حرياً يوماً ما ،
ومن قد ينفخ في وطنه الروح الحرة من جديد . وما عملوا
إلا لاماتها لأنهم لا يخشون غيرها .

مسكينة يا مصر ، أصبحت أكبر شهادة تقدم
للدخول في جيشك أن يتظاهر المتقدم ، أو أن يصرح
بأنه لا يهمه أمرك ، وأنه لا يفكر في خدمتك . مسكينة
يا مصر ، أصبح من أبنائك من تسمح له روحه ويرضى
عنه ضميره إذا قال هذا القول متمسحاً بأسباب مهما
جلّت فهي أمام حبك واهية ، وأمام ما يجب لك حقيرة

دنيئة . متى متى يقوم منك الزعيم

وانقطعت سلسلة أفكارى على قول جدتى :

— كنت أبيت الليل ساهرة ودمعى لا يحف حتى

الصباح . ترى لو اشتبك الجيشان ، لو احترب الأخوة !

لو قتل الأخ أخاه ! لو قتلوا جميعا ! لو فقدت ثلاثهم ، وهم

كل ذخرى بل هم كل حياتى ! أبنائى أين أنتم وفيم

أنتم ؟

هكذا يا ابنتى كانت الهواجس تلهب رأسى ،

ولم يكن لدينا كالأآن جرائد نعرف منها الأخبار ، لم

يكن لدينا أى شىء نستطيع الوصول به إلى معرفة ما قد

تم فى الاسكندرية . أربعة أشهر يا ابنتى قضيتها فى

الجحيم ، أربعة أشهر كفرت وكفر المصريون كلهم عن

سيئاتهم أى تكفير .

— كانت الأخبار تأتينا لكن متناثرة مفككة ،

بعد وقوع الحوادث بأيام بل بأسابيع . قالوا إن الانجليز

ضربوا قلاع الاسكندرية بأساطيلهم ، فارتج قلبي على
أبنائي . كانوا في الاسكندرية ، وكانوا في حرس توفيق
باشا ، ولكن من يدري ؟ قد يكونون أصيبوا هم أيضاً .
وأخيراً جاءني خبر أنهم لم يصابوا في ضرب الاسكندرية .
— ولم ينته الحرج يا ابنتي بضرب الاسكندرية ،
وإنما كان يسير مطرداً نحو شدته . ثار المصريون ثورتهم
واندفعوا وراء زعيمهم عرابي باشا يريدون وضع حد
فاصل بينهم وبين تدخل الأجنبي .

— وأثم عرابي باتهامات شتى ، ورأى عرابي أن
الخدوي قد خدعه الانجليز ، وأنه آمن إليهم أكثر مما
يجب . فلم يكن عرابي والمصريون معه ليفهموا حسن
نية الانجليز بعد ضربهم قلاع الاسكندرية وتدميرها .
فأشهر عرابي الحرب على الانجليز ، وحاربهم وحاربوه .
وأعلن الخديوي أنه غير مسئول عن أعمال عرابي وأصبح
عرابي زعيم الأمة ، والجيش من ورائه . وحارب عرابي

فانهزم ؛ وأخذ يتقهقر إلى أن وصل إلى التل الكبير .
وتحصن في التل الكبير واستعد لموقعة هائلة ، موقعة
فاصلة علق المصريون عليها آمالهم وكل مستقبلهم .

— كان ولدى رأفت في جيش عرابي ، وم كنت أود
لو أن ولديَّ الآخرين كانا في نفس الجيش ، كم وددت لو
أنى قدمت نفسى في هذه الموقعة مع أبنائى) . لم أدخل
الحرب ولكنى قاسيت بعيدة عنها ما كنت أرضى بالحرب
بدلاً منه . ان أهوال القتال مهما اشتدت لا تعادل آلامى
وتهديد آمالى وحرّ انتظارى في هذه الأيام . ولأعترف
لك يا ابنتى بما اقترفت في حق وطنى إذ ذاك . شعرت
ساعتها أنى لو خيرت بين موت أولادى الثلاثة ، وبين
انتصار عرابى في التل الكبير لاحتريت وتمهلت لأفكر .
ولم أخفى عليك ؟ لقد سألت نفسى هذا السؤال ، ولقد
سمحت لى نفسى أن أتردد وأن أميل أخيراً إلى تفضيل
حياة أبنائى . كم كفرت عن هذه الساعة وعن هذا

الخطر . كم لمت نفسي بعدها وقلت لها : التقى جزاءك
على خاطر مر بك لم يكن صريحاً خالصاً في جانب الوطن
وفي سبيله .

— أيامٌ مرت على كالسنيين المليئة هولا وألماً وخوفاً
والتياغاً . أيام بين خبر زحف عرابي باشا إلى التل الكبير
وبين خبر انهزام عرابي باشا في التل الكبير .

— انهزم زعيم البلد ومحط آماله ، وانهزم الجيش
معقد الرجاء وسبيل النجاة الوحيد ، وختم من جاءونا
بالخبر قولهم بأن غداً يدخل الجيش الانجليزى القاهرة
ليعسكر في ثكنات العباسية .

— لن أستطيع أن أصف لك هول وقع هذا الخبر ،
لقد أصبح أهل القاهرة كلهم وقد تملكهم الخوف ،
ودب اليأس في قلوبهم ، يتلهفون على الهرب بأي سبيل
حتى لا يعرضوا أنفسهم لما سينزله بهم الجيش المحتل .
أصبحت هذه تذهب عند تلك لأن يتتها يبعد عن

الشكنات كذا من الأمتار . كأنما في مثل هذا البعد
شيء من الأمان . وفكرت كما فكروا في الهرب
والاختفاء . ان يتنا قريب جداً من الشكنات ، وفي هذا
القرب خطر علينا عظيم . وكانت لى صديقة تسكن
حى بولاق ، فقلت أسير إليها لعل في البعد نوعاً من
الأمان . فاستأجرت عربة لم أجد غيرها في مثل هذا اليوم
وربتت حوائجى ، وأركبت أطفالى الصغار ، ولكن
خاطراً أفسد على كل هذا الترتيب . قلت فى نفسى : إن
دخل الجيش العاصمة فالعاصمة كلها فى خطر ، فما معنى
الهروب من حى إلى حى ، إن الله إن أراد بنا الشر لحقنا
أتى صرنا ، فلم الفرار من المقدور ؟ ولم التجبى إلى
صديقة ولا التجبى إلى الله ؟ سيسمع دعائى دون شك ،
وليفعل بعدها ما يريد .

— وأنزلت أولادى ودخلت دارى من جديد ،
وعمدت إلى المنافذ كلها فأغلقتها ، وإلى الأنوار فأطفأتها ،

ووقفت أرقب الطريق من وراء النافذة . وصغاري
يسألونني بين حين وآخر ماذا جرى ؟ وأين إخوتنا
الكبار ؟ وما يبكيك يا أماء .

— طالما شهدوني بأكية في هذه الأيام ، ففوق
اضطراب الخوف من الحرب كنت أخاف أن تطول
الحال بنا فينفد مالدئ من مال . كانت القاهرة كلها
يا ابنتي وهي عاصمة البلاد مهددة بشبح الفقر ، وخاصة
الأسر التي كان يعولها من بالجيش . فما بالك بأسر الريف
الفقيرة المسكينة . وكنت أخاف على قلوب صغاري
البريئة من الألم فأخفي دمعى وأقول لهم : بعد قليل
تعرفون ، هيا إلى ألعابكم العبوا بها . ويشهدون ويشهد
الله ان لعبة واحدة جديدة لم يروها منذ شهور ، بل منذ
عام . وكأننا قد ملوا السؤال ورأوا في طاعتي ما قد يجلب
لى بعض السكون . فراحوا بعيداً غنى ولم أعرف ماذا
عملوا إلا أن أكبرهم كان يحىء من حين لحين يهدئني

ويقول : صبراً يا أمّاه . ألم يحضر اخوتي بعد ؟ ألم يأت
خبر من عندهم ؟ فأقول له : دعني هنا يا بني واذهب أنت
لاخوتك تلهيهم باللعب أو الكلام حتى يأتينا الفرج .

— وعن بعدٍ سمعت صوت الجند قادمًا ، فكأنما
صوته نار دخلت أذني لتحرقهما بحرهما الكاوي . وشيئًا
فشيئًا اقتربت أصواتهم حتى ظهر واوهم يسرون ضاحكين
مهللين يصفرون وينشدون أناشيد النصر والمجد .
وتساقط دمعى غزيراً حاراً ، فقد كانت صورة كل واحد
منهم شوكة في عيني ، أحس ألمها في رأسى المصدع الذى
يكاد يسقط من ثقله . وأسندت رأسى بين يدي وتركت
دمعى يسقط ما شاء له السقوط ، وأنا أغلى من غيظى
وحقنى . هذا الأجنبي يدخل وطنى غاصباً مستعمرًا
لا لشيء إلا لأنه أقوى جنداً وعدداً . ومن يدرى لعلهم
انتصروا فى الحرب بخديعة لا عن قوة وصبر .

— وما كاد خيالى يوصلنى إلى الحرب حتى ذكرت

أبنائي ، وكان منظر الجيش وشدة الغيظ قد أنسيانهم .
من يدرى لعل هؤلاء قتلة أبنائي أيضاً ! وهنا لم أطق
النظر إليهم . وما إن لفت رأسي كي لا أراهم حتى لمحت
ضابطاً منهم يتجه نحو دارنا ويقرع الباب قرعاً شديداً .
— ولم يكن خادم بالمنزل كله ، لأنهم طلبوا إليّ
في هذا الحرج أن يعودوا إلى أهلهم حتى تنجلي الحال ،
فتركهم لأهلهم فهم أولى بهم وأحق بما قد يستطيعون
في هذا الحرج . نعم يا ابنتي في تلك الظروف تلين
القلوب ويعطف بعضها على بعض . لم أرهم خدماً الذين
تطوعوا لخدمتي إزاء أجر ينالونه ، لم أفكر في أنهم
ينفعونني في مثل هذا اليوم ، رأيتهم يوماً قلوباً محرقة
مثلي لا يخفف عنها إلا الأهل والأقارب ، رأيت أهلهم
وهم سيكونهم فتركهم بل حثتهم على الإسراع إليهم .
ولم يبق لي من خدماً إلا عبدى وجواري فلم يكن هؤلاء
المساكين أهل أو أقارب إلا أنا وأولادي . وكان مسلك

هؤلاء ومنظرهم مما يبعث على الضحك ، لولا أن الوقت حرج مخيف . فما سمعوا أخبار الحرب والانزمام حتى صعدوا إلى أعلى غرفة على سطح المنزل واعتصموا بها أياماً يولولون ويبكون ويصرخون . ولقد تركتهم يفعلون ما يريدون ، فهذه طريقة تفريجهم عن كربهم ، وإن كنت لم أعرف بالضبط سر بكائهم وعويلهم . لكن بعد عودة أولادى عرفت أنهم كانوا يندبون أولادى ويكونهم ، وهم يعرفون أنى لا أطيق هذا النوع من البكاء ، فراحوا فى معتصمهم يكون ماشاءوا ، يا لقلوبهم الطاهرة المخلصة ! قلوبهم التى تراعى مزاجى فى أشد أوقاتهم حرجاً وحزناً وخوفاً! ...

— ولنعد إلى الطارق الذى لم أكن حسبت له حساباً ، من ينزل له ؟ خدى ليسوا فى المنزل ، ولو كانوا لما عرضتهم لهذا الخطر ، وعبدى وجوارى معتصمون بحصنهم العالى ، ولن يطاوعنى قلبى على إنزالهم . وأهلى

يتلخصون في هؤلاء الأطفال الصغار . جئت مصر
غريبة عنها وما مكثت بها قليلاً حتى تزوجت . ومات
والدى الذى جئت معه بعد زواجى بقليل فلم أعرف
بعده أقارب إلا زوجى وأولادى ، واستأثر الموت بجذك
فلم يبق لى إلا أولادى وصغار أولادى ، لأن كبارهم
كانوا فى الحرب .

– وجاءنى أكبر من كان معى من أولادى يقول :
« أمى ، سأنزل لأرى ما يريد هذا الانجليزى » قلت :
كلا ، أنا التى ستنزل إليه . قال : « كيف يا أماء ؟ انه رجل
وهو غريب ، وهو عدو سكر بنشوة النصر ، كيف
تقابلينه ؟ وما أنا فى المنزل ؟ طفلة ترضع ! » قلت : ولدى
كلمة واحدة . أنا التى ستنزل إليه . قال : « أمى ، إنه
انجليزى وهو لا يعرف العربية ، فكيف تتفاهان ؟ » .
وجئتُ أمام صدق ملاحظته . ولكن لن أدعه ينزل
وحده قلت : انزل يا بنى ، إنى فى أثرك . وعدوت

إلى المطبخ فأخذت سكيناً حادة أخفيتُها تحت ثيابي ،
ونزلت السلم وراءه حتى جئنا الباب ففتحته ووقفت خلفه .
— ورأيت من الإنجليزي رجلاً في غاية الأدب ،
يكلم ولدي بما لم أفهم ، ولكنني لمحت فيه ذوقاً وأدباً
واحتراماً جعلني أنتظر . ولم أكد أنتظر حتى صاح فيَّ
ولدي مهلاً فرحاً يقول : « أمي ! إن أخوي اللذين في
الحرس بخير وعافية ، وقد طلبا من هذا الإنجليزي أن
يمر بك ليطمئنك عليهما » .

— نسي ولدي أنني كنت محتبئة من شدة فرحه .
ونسيت أنا ما هو أخطر من هذا من شدة فرحي : نسيت
أنني إزاء واحد من الجيش المغتصب ، أني إزاء الإنجليزي
كان منظره منذ دقائق يشوك عيني ، ويصدع رأسي ،
ويبكي غيظاً وحنقاً ؛ نسيت أنني أمام عدو غلب أمتي ،
فقلت لولدي : قل للضيف يدخل ليستريح قليلاً ريثما
يشرب فنجاناً من القهوة .

— رفض الضابط عرضي لارتباطه بمواعيد فرقته ،

وما كاد الباب يقفل حتي صحت : ولدي ، ولدي ! هذه
سكيني ، اقتله ! اقتله ! إنه انجليزي ! إنه هازم أمتك ، إنه
هازم أخيك رأفت ! إنه ... وكدت أقول قاتل رأفت
لولا أنني أحسست أنني سأقول كذبة هائلة .

— وهدأني ولدي وكفكف دمي وقال : أمي ! إن
رأفت لم يمت ، أنا أحس هذا ، هو قادم إلينا عما قريب .
أمي لا تبكي ، إخوتي في أمان .

— في غرفتي المظلمة ظللت أبكي وأبكي . ولو كان
هذا الضابط جاءني بنعي ولدي ما بكيت أكثر مما
بكيت . كنت أبكي وطني يا ابنتي وانهزام ابني رأفت .
كنت أبكي أرض مصر التي أصبحت يطاها الأجنبي
ظافراً مزهواً نفخوراً بالنصر . مصر وطني الذي لم أولد به
ولكنني لم أعرف لي وطناً سواه . مصر التي قضيت بها
أسعد أيامي ، مصر التي سال دم زوجي وفاضت روحه

من أجلها والتي سال دم أبنائي ، ومن يدري ؟ لعل رأفت
قتل في سبيلها !

— وطُرق الباب فزلت مسرعة ، فاذا بي أسمع شهقة
وبكاء ؛ كان ابني سبقتني إلى الباب ، وكان الطارق ابني
رأفت ، والأخوان يتعانتقان عناق الهزيمة والخيبة ، ويبكيان
لا من فرح اللقاء بعد انقطاع الرجاء ، وإنما يبكيان
من ألم الهزيمة وذل الانكسار .

— وعداً رأفت إلى والدمع يبلى صدره ، وعانقتني
وقبلني . وأخيراً استطاع أن ينطق : « أماء ! لا تبكي ،
إن إخوتي لم يصبهم أذى ، وها أنا ذا سليم أمامك »
— ولكنه كان يخادع نفسه في طمأننتي على أولادي .

كأن يحس تماماً أنا كلنا نسينا كل شيء في تلك اللحظة
إلا مصر المهزومة . فما أتم كلامه حتى رمى رأسه على
صدرى وأخذ يبكي ويبكي . قلت : بُني ، إن ذل
الانكسار أليم ، وإن ألم الهزيمة لا يعادله ألم في نفس

الجندي ؛ ولكن صبراً إن الله لا يضيع أجركم . إن الله
الذي يرعانا جميعاً لن يرضى عن هذا الظلم ، وسينتصر
الحق عما قريب . صبراً مبنياً لا تبك .

وتساقطت دموع جدتي حارة ساخنة كأنما رأفت
ما زال على صدرها . ثم قالت شاهقة من البكاء : وإلى
الآن يا ابنتي لم يرفع الظلم عن مصر ، وإنما ازداد بأس
الظالم وعتوه .

كنت أعرف أن الحديث عن مصر يؤلم جدتي ،
تلك العجوز التي عاشت عمرها وهي تغذى مصر بأبنائها
وزوجها وبقلبها . لم يعمل واحد من أبنائها إلا في الجيش
المصرى ، ولم يمت زوجها إلا في خدمة الجيش المصرى ،
بل في ميدان الحرب من أجل مصر وفي سبيلها . لقد
علقت هذه العجوز ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، إن
كان لا يزال لها مستقبل ، بمصر وبآمال مصر . وكذلك
أبنائها كلهم لم يعرفوا ميداناً للعمل إلا جيش مصر .

أحاديثها مع زوجها وأحاديثها مع أبنائها كلها كانت تدور
حول مصر ، وها هي اليوم أحب ما تحدثني به إليها
وإلى حديثها عن مصر .

وأردت أن أغير موضوع الكلام ، فقلت ساهية :
« ولكن ابنك رأفت مات في حرب » ، وكأنما زدت
النار خطباً وأنا لا أدري ، فقد اندفعت جدتي نائرة ، وقد
تقلص وجهها المجمع الجميل ، وجحظت عيناها الباهتتان
الغائرتان الدامعتان . ومن فيها الدقيق الذي ظهرت عليه
معالم الكبر والوهن ، خرجت كلماتها حارة قوية حزينة
ساخطة :

— لقد غدر به اللثام ، لقد قتلوه وقتلوا عشرة آلاف
جندى مصرى غدرًا وخيانة وظلمًا . ولو كانوا يا ابنتي
قدموهم إلى المقصلة واحداً واحداً لكان أشرف لهم ؛
فهم أقوياء ، وهم يريدون فناء الجيش فليفنوه علناً .
وليشجعوا شجاعة تمكنهم من احتمال اشتمزاز العالم من

الظلم والجور . أما أن يتستروا وراء الحيل والخديعة ليفوزوا بمآربهم الدنيئة وباحترام العالم في وقت واحد ، فهذا شر ما أعرف من حالات الجبن . إن الطاغية الذي يقتل ويُشرد ويعذب ويسجن ليفوز باحترامى ، وإن باء يبغي واشتمزازى ، لأنه يظلم ويواجه العالم ظالماً ؛ لأنه يظلم ويعرف لنفسه قدرها ، فينزهاها عن الخيانة والغش والخداع .

— ما دخل الأنجليز مصر حتى عرفوا أن أخطر ما فيها جيشها . ولقد بلوا هذا الجيش في حربهم فالفوه شجاعاً صبوراً هزيمته تكلف كثيراً ، وقد يعجزون عما تكلف . ما دخل الأنجليز مصر حتى عرفوا أن جيشها على قلته ليس جيشاً يستهان به . فقالوا إلى هذه الشوكة في سبيل أخذ البلاد نقلعها ونستريح من خطرها . وهكذا دبروا ما يسميه التاريخ « موقعة هكس » ، وما أسميه أنا « خديعة هكس » .

— بعد ثلاث سنين من دخولهم مصر جاءتهم الفرصة
سائحة موالية . قامت ثورة المهدي في السودان واستفحل
أمرها ، فحشدوا عشرة آلاف جندي مصري وأرسلوا
معهم القائد « هكس » الانجليزى . ولم يشك أحد من
المصريين إذ ذاك في أن الانجليز لا يريدون بهذا الجيش
إلا أن تخمد ثورة المهدي في السودان . فسار الجيش
وآمال المصريين معلقة به ، هذه لها ابنها ، وتلك والدها
أو زوجها أو أخوها ؛ أما أنا فكان لى فيه ولدى رأفت .
— ودّعت يومها ولدى رأفت وأنا أحس أنى لن أراه
بعدها ، ولكن غالطت نفسى وقلت : هذا كان شعورى
يوم ودعته ليسير مع عرابى باشا ، وها هو قد عاد سالماً ؛
فكفكت دمعى وقلت : سر يا ولدى والله سيرعاك
ويردك سالماً لأمك .

— سار الجيش وراء قائده سليمان نيازى باشا ورئيس
أركان حربه هكس باشا . وتحمل الجيش ما تحمل من

مشاق الطريق ، وألم الجوع ، والصبر على العطش . وما
قاربوا « الأيَّض » بعد انتصارهم على وكيل المهدي قربها
حتى طمعوا في فتحها ، وأرسلوا إلى الحكومة لتأذن لهم
فأذنت . وهنا بدأ هكس مكيدة الانجليز : قال إنه لن
يسير إلى « الأيَّض » إلا إذا كانت القيادة له ، وإلا فهو
غير مسئول عن النتائج . وأسامت القيادة له وأرسلوا معه
حكمدار الخرطوم علاء الدين باشا ؛ وسار هكس بالجيش
المصري لفتح « الأيَّض » في طريق وعر صعب المسالك ،
لا ماء فيه ولا مأوى . وأشار عليه علاء الدين باشا ألا
يتبع هذا الطريق ، وأبان له وعورة مسالكه وقلة مياهه
وخطورته ؛ فأبى القائد إلا تنفيذ خطته ، وسار الجيش
جائماً عطشاً ، مهدداً كل آن بخروج الدراويش عليه
من الأحراش . وجاعت الجياد وعطشت وسقطت اعياء ،
وأصبح أمر الجيش مؤلماً فظيماً أشد الفظاعة ؛ أصبح
جسماً بدأ الموت يدب فيه من الجوع والاعياء والعطش .

كل هذا وهكس مصمم على السير في الطريق الذى اختاره . وما ان شاربوا ماء حتى اندفعوا نحوه فى لهفة وسرعة ، ومدوا أعناقهم من العطش إلى حافة الماء يشربونه بأقرب طريق وأسرعه . وهنا خرج عليهم الدراويش من أتباع المهدي وذبحوهم ذبحاً وأفنؤهم إفناء . ولم يبق من الجيش كله إلا قلة لا تتجاوز بضع مئات ممن استطاعوا الاختفاء بين الأشجار أو بين جثث القتلى .

— خديعة والله يا ابنتى دبروها وأحكموا تديرها .

وهل يعقل أن يراد بجيش الثورة العرابية بعد ثورتهم بقليل إلا الشر والدمار ؟ لقد خسرت انجلترا قائداً واحداً قبل أن يضحي حياته فى سبيل إضعاف الجيش المصرى أو الانتقام منه . أما مصر فقد خسرت مقابل هذا القائد الواحد حاكماً ، وستة قواد ، وعشرة آلاف جندى بضباطهم ! جازاهم الله يا ابنتى إن عز الدنيا لا يدوم ، وسلطانهم مهما قوى فله ساعة . لهم يوم يدك فيه

جبروتهم ، وتُذَل فيهِ نفوسهم السكرى بنشوة النصر .

— وما جاءني خبر تلك المجزرة حتى جزعت على

رأفت كل الجزع . ولست أدري كيف أن قلبي الذي لم

يكذبني قط لم يشأ أن يصدق موت رأفت . كان قلبي

يحدثني دائماً أنه حي لم يذبح مع من ذبح . قالوا إن قلة

قليلة نجت ولم نكن نعرف كيف نجت ، فقلت إن رأفت

فيمن نجوا ، إن رأفت لم يموت . ويعلم الله أتى بعد معرفة

كيفية نجاتهم لم أتمنَّ حياته وفضلت موته .

— ولم أكن أعرف يا ابنتي المشايخ ولا السحر ،

ولكن صديقاتي كن يعرفن هذه الأمور ويعتقدن فيها

اعتقاداً راسخاً . فلما رأين لوعتي وحيرتي وآلام الشك

الضعيف الأمل جداً . قلن لي استشيرى الشيخ فلاناً ،

إنه صادق لم يكذب قط . وذهبت مع إحداهن عند

الشيخ وأعلمته طلبي . وبعد مراسيم سخيفة لم أشعر

بسخاقتها إلا بعدها بكثير ، بعد أن أفقت من الكابوس

المزعج الأليم قال لى : « ان رأفت ولدك حى لم يمت .
وانه يهيم وحده وسط هذه الأدغال ، وانه واصل إليك
وان تأخر » .

— زاد اعتقادى بعدها أن رأفت حى . ولكم نهرنى
ولدى الكبير قائلاً لى : « أماء ! ان رأفت مات ، فاحزنى
عليه حزن الشكالى ، لكن أريحى نفسك من آلام هذا
الشك وهذه الآمال التى تعرفين فى قرارة نفسك أنها
خائبة . ما ذهابك إلى المشايخ وأنت تعرفين دجلهم
وخداهم ؟ أريحى نفسك يا أماء واطلبى من ربك صبراً
وعزاء ، فهذا خير لك » .

— كنت أقول دائماً : كلا رأفت لم يمت ، قلبى
يحدثنى بهذا ، وان كان حديثه خافتاً كما لم أعهده من
قبل . وكنت إثر كلام ولدى أحس بضعف الأمل فأسرع
طوراً لهذا الشيخ وطوراً لذلك ، فيؤكدون لى جميعهم
أنهم يرون رأفت حياً بين الأدغال يسير نحوى .

— إن حزن الأم على ولدها لا يعادله حزن مهملها جل وعظم ، لكن هذا الحزن درجات ، وللزمان أثر فيه .
وأى شيء يا ابنتي لا يخضع لجبروت الزمان ؟ إن شر ساعات هذا الحزن ساعاته الأولى ، فليس أشق على الشكلى من احتمال الساعات التى تلى نعى ولدها مباشرة . ولقد قاسيت هذا الألم الممض مراراً فى رأفت ، مر على الشهر الأول وفى كل يوم يردد عقلى نعى رأفت لقلبي ، فيا بى القلب أن يصدق ، ثم يعود فيصدق ، فاذا ما بدأ أثر الزمن والعزاء ينفذان إلى هذا القلب الجريح ثار القلب ثورته على القدر وعلى الدنيا وصاح بى : رأفت لم يمت ، ان القدر لن يقسو عليك أكثر مما قسا .

— مضى الشهر يا ابنتي وكل ساعة من ساعاته تسير كأنما قد حملت حديد العالم كله ، فهى وثيدة بطيئة ثقيلة طويلة ، وبدأ الزمن فعله فكنت أنسى رأفت ساعة لا ذكره أياماً ، كنت أقنع بموته لأثور ثانية وأعتقد أنه

حي . وهكذا مرت على السنون يا ابنتي وأنا في حيرة وألم ،
لا ادري كيف احتملتهما .

وبعد أعوام عاد من السودان بعد فتحه من كان قد
شهد الواقعة ، فاستدلت على أحدهم وذهبت إليه بنفسى
دون علم أولادى وسألته : أتعرف ابني رأفت ، الضابط
في فرقة كذا ؟ قال : « نعم » . قلت : أين هو ؟ قال :
« قتل ياسيدتى ، أو ذبح على الأصح فيمن ذبح » .
قلت وقد بدأت أبكى دون وعى : لكنه حي ؟ قال
في شفقة وحسرة : « ولكنى رأيته مقتولاً بعينى » .
فشهقت وقلت : هو حي ، هو حي . وأخذت أبكى
وأبكى . تخفف على الرجل بعض ما أجد وقال : « سيدتى :
عزاء جيلاً وكفاك نفراً أنك قدمت ولدك على مذبح
الوطن » . قلت : جزاك الله خيراً يا بنى .

— منذ أن فاه الرجل بعبارة هذه ملئ قلبى نفراً وأمناً
لم أحسهما منذ شككت في موت رأفت . نعم قدمت

من أجلك يا مصر شاباً في العشرين من عمره ، لم يملك
إلا حياته فقدمها على مذبحك غير طامع في شكر أو نخر
أو ذكرى . في قلبي هنا كل ما بقي من ذكرك يا رأفت .
وبموتى القريب يا ابنتى تطوى ذكراه ، وكأن لم يكن .
حياة الجندى ما أقسى وما أكثر ما تكلف وأشقاه ،
لكن ما أنبلها وما أعظمها !!

سكنت جدتى وسمعتها تتمم : كلا يا قلب ، إن
رأفت مات ، فلا تشق الجرح جديداً بعد أن بدأ يندمل .
كان قلب جدتى ما زال يقول لها : « رأفت حى » .
ودقت موسيقى الجيش مرة أخرى بمرور فرقة
ثانية ، فأعادت جدتى كلماتها بنغمة حزينة فيها استسلام
يائس مرير : « ويدكرنى الجيش أولاً ، وقبل كل شىء ،
بدم ابنى رأفت المهدر غدرأ . يدكرنى برأفت الشهيد الذى
لأعرف له قبرأ أبالله بدمى فأجد فى هذا بعض الشفاء » .

وقالت جدتي :

— كنا يا ابنتي أسعد منكم حالاً مهما حاولت اقناعي
بعكس هذا ؛ كنا لا نشغل أنفسنا بما تشغلون به أنفسكم
أنتم الآن . كان يوم الرجل يقضى ما بين عمله وبيته . لم
تكن هناك قهوات يضيع فيها الشباب والشيخ أحسن
أوقاتهم وأكثرها ملاءمة للعمل . لم يكن المار في الشوارع
يرى هؤلاء الجالسين على قارعة الطريق ، لا عمل لهم إلا
شرب القهوة والدخان ، أو ما هو أكثر منهما ضرراً ، وإلا
الكلام الذي لا يدور حول الخير ، بل أكثر ما يدور
حول الشر . كان الصبح يجتمعون في الدور .
قلت : وفي الدور يفعلون ما يشاؤون .

قالت جدتي : إن للدور مهما قُلَّتِ حرمتها ، إن
الرجل مهما يفسد لن يستطيع في بيت له حرمة
ما يستطيعه في دار هو أو قهوة ، ليس له أى حرمة خلقية .
لا يا بنتي ، لا تحاولي أن ترضيني عن هذا الزمن . سلى
الرجال أنفسهم ألم يكونوا أسعد حالاً يوم كانوا يعملون
ولا شاغل لهم إلا العمل ، يتبارون فيه ويتنافسون في
اتقانه . سليهم عن حالهم ، يوم كانت وظائف الحكومة
أكبر ميدان وأفسحه لخدمة الوطن ، ثم سليهم عن
حالهم بعد أن أصبحت دور الحكومة ووظائفها أضيق
الميادين لخدمة الوطن خدمة صادقة مخلصة . سليهم أحالهم
اليوم ، وقد أصبحوا مشغولين بالعلاوات والترقيات ،
بالانتقامات والخصومات ، بالمندوب الجديد والمندوب
القديم ، بالوزير المستقيل والوزير الآتي ، بالنظام الجديد
والنظام القديم ؛ سليهم أحالهم تلك وذئبتهم وعدم قرار
نفوسهم وتهديد مصالحهم ومعاشهم كل حين أم حالهم

يوم كانوا كلهم إخوة ، وكلهم يدأ واحدة ، وكلهم كلمة واحدة ، يسعون لغاية واحدة هي أنبل ما عرف التاريخ من غايات .

قلت : دعيك جدتي من رجال اليوم ، ولنا في شباب الغد عزاء . ألا ترين كيف بدءوا ينفرون من سياسة الشيوخ ؟

قالت جدتي : لا شيوخ ولا شباب . انظري إلى هذا الشباب الذي تعقدين عليه الرجاء . انظري إليه كم عدده وكيف حماسته إذا ما التف حول راقصة أو مغنية . ثم ابحthy عنه في اجتماع سياسى ، أو فى مشروع اجتماعى . لا يا ابنتى إن الحال لا تبشر بخير إلا أن تحدث المعجزة ؛ ومصر بلد السحر والمعجزات ، فلننتظر المعجزة ، فقد لا يطول الانتظار .

قلت : جدتي ! ما أكثر تشاؤمك ؛ وكم أكره حديث التشاؤم . إنى واثقة من أن شباب اليوم سيحققون

ما عجز عنه شيوخ الأمس . وليكن هذا بمعجزة أو بغير معجزة . سننال ما نسعى إليه لأنه حقنا ، ولأنا نؤمن بحقنا إيماناً نسترخص في سبيله كل تضحية وكل ثمن . صبراً جدتي ، إنا نسعى وكل سعى يغذوه الايمان لا بد أن ينجح .

قالت : ما أجل تفاؤلك يا ابنتي ، ويعلم الله كم أحبه لك . تفاؤلي فلن يكون سعى إلا لمتفائل ، واسعى فلن يكون نصر إلا لساع . سيروا في طريقكم فسيخفق قلبي في قبري فرحاً لنصركم ، وسترضى روحى في عليائها ، يوم ترى مصر حرة آمنة عظيمة مجيدة .

قلت : كنتم يا جدتي أسعد حالاً لأن سعيكم لم يكن محفوفاً بالصعاب التي تحف سعينا . ولكننا نرى في هذه الصعاب ، وفي تلك التضحيات ، لذة جديدة . إن هذه الحوادث التي تسخطك ما هي إلا دروس تلقى ، دروس قاسية تتكرر ، وفي قسوتها وتكرارها حكم غاليات .

قالت جدتي : عسى أن تجد الحكمة سبيلاً إلى من يفهمها . لكن دعيك من الشباب وتعالى إلى الشابات أترينهن أسعد حالاً من أخواتهن شابات الجيل الماضي والجيل الذي سبقه ؟

قلت : بلا شك .

قالت : كل شيء إلا هذا . أهذه التي تتبرج وتكشف عن أعظم جزء ممكن من جسمها وتسير في الطريق العام لفتناً للأنظار ، فلا تظفر بالطبع إلا بالعجاب شر من في هذا الطريق وأحطهم خلقاً . أتلك سعيدة الحال أم فتاة الأمس التي تظل محجبة في دارها كريمة مكرمة ، يتهافت الشبان على طلبها ، فيختار لها الوالد ذو الخبرة والدراية أصلح هؤلاء لها ، فتعيش حياتها معه يعرف لها كرامتها ويحترم مكاتها ؟ أزوجة اليوم التي تظن في نفسها ما ليس فيها ، فتتكبر على زوجها حيناً ، فاذا ما خاصمها سمعت إليه لترضاه ، أم زوجة الأمس التي كانت

تعرف مكانتها تماماً فلا تتكبر حيناً لتذل نفسها أحياناً ؟
 قلت : كلا جدتي لم تكن نساء الجيل الماضى كما
 تصفين ؛ وإنما وصفك هذا وصف قلة فلا تحكمى به
 على المجموع . كلا جدتي لا تنظرى إلى ظواهر نساء
 اليوم فتحكمى عليهن بها . ولئن أسخطك تهتك الفتيات
 وإهدارهن كرامتهن ، فإن هذا لا يسخطنى فحسب وإنما
 يفجرنى غيظاً . إن هذه التى ترينها تعنى بجمالها ، وتهادى
 فى مشيتها وتحاول لفت الأنظار ؛ إن الفتاة التى تهدر
 كرامتها إهداراً ؛ إن هذه ليست فتاة اليوم ، ولكنها
 الضحية . هى الدرس يلقى لتعلم الفتيات الأخريات . هى
 المشيم يُحرق لزداد نار التطهير وقوداً واشتعالاً . هى المادة
 تكثرويسهل منالها حتى تبثذل فيعف عنها الناس . فتاة اليوم
 هى التى تعرف لنفسها كرامة ومنزلة ، وتعرف تماماً أنها
 إن هى حفظتهما حفظهما لها الناس صاغرين ، وإن داسوها
 فلا تلومَنَّ إلا نفسها التى ارتضت دوسهما أو مهدت له .

فتاة اليوم تعرف عن الحياة ما لم تعرفه فتاة الأمس ؛
لذلك آراؤها تختلف ، ونظراتها تختلف ، وأعمالها
تختلف . السعادة التي كانت تقنع بها فتاة الأمس تراها
فتاة اليوم الحقبة سعادة زائفة لا تستحق تقديراً ، بله
الرضى . ولكنى لا أحدثك عن فتاة اليوم التي تستحق
الاحترام والاعجاب ، لأنى ما جئت إليك محدثة وإنما
جئت سامعة ، هذا فوق ما أشعر به من تعب خفيف .
قالت : كل هذا يا ابنتى من كثرة ما تقرئين
وتفكرين . طاول عيني واسمعى منى واتركى هذه الكتب ،
وانظرى أى تغيير تحسينه فى صحتك . وهذا داء جديد لم
نكن نعرفه ؛ مرض القراءة كفانا الله شره . رحم الله
زماننا يوم كنت لا أترك لبناتى وقتاً يقرأن فيه أبداً . كنت
أقول إن الفراغ يجلب أفكار السوء . وكانت القراءة
عندى فراغاً . رحم الله يا ابنتى وقتنا فقد كنت لا أسمح
لبناتى أن يقرأن كتاباً لم يقرأه والدهن أو أخوهن الأكبر

من قبل . أين أنتن اليوم مما كنا فيه ، وهذه المكاتب مفتوحة أمامكن يمكنكن أن تقرأن أى كتاب . أين أنتن منا وها أنت تعرفين ما لم أعرف بل ما لا أمل لى فى أن أعرف .

قلت : عفواً جدتى . إن وقتكن كان كله مشغولاً . كنتن تعنين بشؤون الدار عناية تستغرق كل وقتكن . أما اليوم فالمخترعات الحديثة سهلت هذا العمل تسهيلاً كبيراً . والمحترفون والمحترفات قاموا عنا بما كنتن ترين عاراً أن يقوم لكنَّ به الغير . هذا كعك العيد مثلاً الذى ترين إلى اليوم أنه لا بد أن يصنع فى البيت ، انظرى كم من البيوت تشتريه من الخارج ، وكم تتسع وتتفنن محال الحلوى فى إتقانه بعد أن لم تكن تصنعه أبداً !

قالت : حقاً يا ابنتى كم من الوقت كانت تأخذنا هذه الأشياء . كان كعك العيد يأخذ منا أسبوعاً أو أكثر . فهذا اليوم نجتمع كلنا فى دار احدانا نصنع لها

كعكها كله ، وفي الفد عند الأخرى نصنع لها كعكها
وهكذا حتى يأتي يوم العيد .

— كم كانت هذه الجلسات حلوة . جلسات لا كلفة
فيها ولا تصنع ، جلسات أهلية كلها صفاء وكلها سرور .
جلسات ليتكن تستطعن الاستمتاع بمثلها . لا يا ابنتي
كنا أسعد حالاً في صداقتنا . قارني بين جلستنا هذه وقد
لبسنا كلنا أقل ملابسنا قيمة لأننا نعرف أنها معرضة
للاتساخ ، وقد جلسنا كلنا أخوات ، إن تأملت واحدة
تألمنا لها كلنا وأشرنا عليها بما يفرج ألمها ، بل كثيراً
ما نساعدتها على إزالة أسباب الألم ، وإذا ضحكت واحدة
ضحكنا كلنا معها . قارني بين مجالسنا هذه ومجالسكن
وما يملؤها من تصنع ورياء . كان الأغلب على جلساتنا
نحن الضحك والسرور والغالب على مجالسكن السخرية
وتحقير الغير .

— هذه أيام الأعياد ، وكانت لنا أيام الأفراح

أيضاً . فإذا كانت بنت صديقة أو أختها ستزوج ، فإن هذا يأخذ من وقتنا شهراً كاملاً أو يزيد . كنا نذهب في بيت العروس لنخيط لها ثيابها وكل ما سيحتاج إليه منزلها . لم نكن نعرف الخياطات ، ولم يكن لهن وجود أيامنا إلا قليلاً . وكنا نخيط لأنفسنا ملابس لهذا الفرع ، فإذا أعجبنا قماش يا ابنتي لم نكن نخفيه أو نخفي ثمنه ومحله عن صديقاتنا كما تفعل أكثر فتيات اليوم المجنونات بشيء اسمه « الجديد » أو « الذي لم يسبق له مثيل » . كنا نأخذ القماش نعرضه على صديقاتنا ونبين لهن مميزاته ، فإن أعجب واحدة منهن اشترينا لها مثله . حتى شكل الملابس نفسها ، إن أعجبنا شكل عرضه بعضنا على بعض . وربما ذهبنا إلى نفس الدعوة ، ونحن اثنتان أو ثلاث بنفس اللباس من نفس القماش ، وعلى نفس الشكل ، لا نرى في ذلك أثراً من القبح ولا نشعر إزاءه بأقل ضيق .

فإن لم يكن عيد يا ابنتي أو فرح ، وقلما كانت تخلو
أيامنا منهما ، اجتمعنا اجتماعاتنا العادية ، يوماً عند
هذه والآخر عند تلك . وكثيراً ما كنا نجتمع في منزلنا
القديم لأتفه المناسبات . كانت صديقتاي يجتمعن عندي
كل أسبوع لنستحم معاً في حمام بيتنا القديم . أتذكرين
يا ابنتي هذا الحمام الرخامي الواسع العريض ؟ أتذكرين
أقسامه وأحواضه ومكانه من بيتنا القديم ؟

قلت : إن في ذاكرتي صورة منه عجبية غريبة ، قد
دخلته مرة واحدة على ما أذكر ، ومع هذا فإن صورته
في خيالي صورة غريبة فذة ، لا أذكرها إلا شعرت
بشيء من الرهبة والخوف .

قالت جدتي : في هذا الحمام يا ابنتي كنا نجتمع جميعاً
أنا وصديقتاي كل أسبوع نستحم فيه معاً . كم شهد هذا
الحمام من لعبنا وجرينا . كم رددت جدراناه أصواتنا
وضحكنا . إن هذا الحمام يا ابنتي مليء بالذكريات العذاب

ملى بالصحف الجميلة ، صحف زماننا الذى لن يعود .
لا أذكره إلا ذكرت أسعد أيام حياتى وألذها . كل
حزن كان يذوب فيه ، وكل هم كنا نتركه عند بابيه . لا نعرف
داخله إلا الضحك والبشر .

— كانت هذه تساعد تلك على تنظيف ظهرها أو
تمشيط شعرها . وكانت شعورنا حلوة طويلة تغطى
أجسادنا إلى النصف أو نحوه . كانت جمالنا لم نعلم إليها
يوماً بمقص نقصها ونغيثها . كانت قطعاً من أجسادنا
نحرص عليها ونعنى بها كل العناية . وهذا ما بقى لى من
شعرى الطويل الجميل .

وأمسكت جدتى بشعرها فاذا هو طويل ناعم
كستانى ، كانت به آثار جمال عفت معالمة ، وكانت به
آثار عناية ما زالت توليها إياه رغم كبرها ووهنها .

قلت : جدتى ، وما السرفى أنى أخاف صورة هذا الحمام ؟
قالت : يا ابنتى إن عصر هذا الحمام الجميل لم يدم

طويلاً . فقد ماتت صديقتاى واحدة إثر واحدة ، ولقد
مات جدك وأغلب أزواج صديقتاى . فكانت لموتهم
رنة حزن عميقة رجّت كياننا رجاً وبدلت حياتنا تبديلاً .
أصبحنا لا نهتم كثيراً بمرح الحياة ولهوها . لبسنا الجد
والحزن يا ابنتى فلم نعد نضحك إلا قليلاً . وكان هذا الحمام
أول ما شعر بما طرأ على حياتنا من تبديل . لم نعد إليه
ولم ندخله . أقفل الحمام وأصبح مقفراً خاوياً ، لا تجرى
مياهه ولا تردد جدرانها صوت إنسان . وأصابه يا ابنتى
ما يصيب كل شيء مهجور : سكته العفاريت والأطياف ،
سكته الأرواح بعد أن كانت تسكنه الأحياء . ما دخل
خادم ينظفه بعد ما هجرناه إلا جاءنى يرجونى أن أعفيه
من عمله هذا ، فاذا ما قلت له : يا بنى إن الذى تحسه أوهام
لا صحة لها ، قال : « ياسيدتى مرينى أن أقوم لك بما تريدن
إلا تنظيف هذا الحمام » . وعبثاً حاولت معهم وعبثاً غيرتهم ،
فما يكاد يأتى الخادم الجديد ويلبث أياماً حتى يعرف من

سائر الخدم قصة هذا الحمام ، فلا يقربه ولا ينظفه بحال .
— ومن حسن حظي يا ابنتي أن الحمام كما قد تتذكرين
كان منزويًا شيئًا ما في الدور الأسفل من المنزل ، فساعد
هذا على أن تتجنبه وأن تغفل أمره .

— ومررت أعوام وأعوام والحمام مهجور من الأحياء
مسكون بالأرواح حتى جاءت لك خادمك « رحمة » .
وكانت « رحمة » هذه ريفية لم تخدم إلا في بيوت الريف .
وما أن وصلت إلى المنزل حتى سمعت هي الأخرى
قصة الحمام .

— وذات ليلة بينما كنا جالسين نسمر ، وقد تقدم
بنا الليل ، إذ عدت نحوى « رحمة » تقول : « سيدتي سيدتي ،
اخفيني عندك ! » كانت المسكينة ترتعد فرقًا وقد ابيض
وجهها ولمعت عيناها من الخوف . كانت ترتعش باردة
اليدين وهي لا تشعر بما تأتية من حركات . وكانت
دموعها جامدة في عينيها تزيدها بريقًا ولمعانًا .

— فقلت لها : يا ابنتي ما بك ؟ ما بك يا رحمة ؟
وأخذتُ أخفف عن المسكينة ما تحسه وأهون عليها أمر
ما تفرع منه . واجتمع الخدم وأصحاب المنزل حولها .
منهم من كان نائماً فاستيقظ ، ومنهم من كان يستعد للنوم
فتركه . وأخيراً استطاعت « رحمة » أن تنطق فقالت :
« سيدتي ، إن عفريته خرجت لي من الحمام ونادتني بصوت
خافت محرج : « يا رحمة يا رحمة » وما سمعت هذا
الصوت يا سيدتي حتى عدت على السلم أفر منها . وأنا
أحس أن رجليّ انفصلتني عني . فاذا نور خافت باهت ،
ولكنه ظاهر ، وسط هذا الظلام الدامس ، تبعني ورأى
على السلم . وإذا الصوت يعود ثانية : « مالك خائفة
يا رحمة ؟ رحمة ! رحمة ! » ولم ألتفت ورأى من شدة
الخوف ، وإنما عدت إليك هنا يا سيدتي ؛ ولست
أعرف أين ذهبت تلك الروح » .

— منذ تلك الليلة يا ابنتي والخدم لا يقربون الحمام ليلاً

بحال . منذ تلك الليلة وكل خادم تمر بالحمام ليلاً تعود إلى
النور خائفة زاعمة أنها سمعت صوتاً يناديها . وأن
الصوت صوت امرأة محشرج كأنما صاحبه يتألم من شيء .
— وكنت يا ابنتي أريد أن أتحقق ما يقولون ، فإذا
ما قوى عزمي يوماً أحاط بي خدمي يهونني عن هذا
ويستحلفونني ألا أذهب ناحية الحمام ليلاً . ولا أكذبك
يا ابنتي ، فكثيراً ما كان يعوقني خوف واضطراب عصبي
عن أن أجرب الأمر بنفسى !

— وكان أولادى ينهرون الخدم ويلومونهم على
هذه الغفلة وهذا الجهل . وكان منهم من ذهب بنفسه
ناحية الحمام ليلاً ليثبت لهم أن ليس ثمت شيء . ولكن
حجتهم كانت دائماً أن العفريّة لا تظهر إلا إذا كان
الشخص وحده ، وأنها تخاف النور كسائر العفاريات
فلا تظهر فيه .

— وذات ليلة جاءتنى « رحمة » خائفة ، تبكى من

الخوف وهى تقول : « سيدتى ، لقد كذبنى سيدى
وكذبتمونى كلكم يوم حدثكم عن العفريتة التى تن فى
الحمام . فتعالى إلى السلم واسمعى بنفسك أيتها . سيدتى ،
لا أستطيع أن أمكث فى البيت بعد اليوم ، وإن كنت
لا أحب أن أفارقكم بعد هذه العشرة » .

— وقت يا ابنتى خائفة أستر خوفى ، فيخفى حيناً
ويظهر حيناً آخر . وعلى حافة السلم وقفت أنصت إلى
جهة الحمام ، فإذا صوت يئن ويتألم ، صوت ليس آدمياً ،
وإنما كثير الشبه به ؛ يئن ويتألم طوراً خافتاً وطوراً
عالياً . وكان الصوت فيما يظهر ينبعث من أبعد مكان فى
الحمام ، فتردد جدران الحمام الصوت ، ويردده صحن الدار
حيث السلم ، فيصل إلى آذاننا ضعيفاً غريباً . ولكنه
صوت أنين دون شك .

— وتمثلت صوت صديقتى واحدة واحدة ، فإذا هو
صوت إحداهن . صوت عائشة كما كانت تن ساعة ألمها

من مرضها الأخير الذي ماتت به . ولم أطق سماع أكثر مما سمعت . وقد كنت خائفة جداً . فأثرنا الأنوار ، فاذا الصوت ينبعث من الحمام كما كان لا يخفيه إلا أصواتنا .
— ولما جاء ولدى الكبير قلت له : تعال معي .
وأسمعت الصوت . أنصت أولاً وأنكر ثانياً ، ولكنه آمن أخيراً وأحس الخوف والرغبة . قلت : يا بنى هيا بنا إلى الحمام ، ومعنا مصباح نكشف الأمر . قتلها يا ابنتى وأنا لا أقصدها ، وأنا عازمة على ألا أنقذها . وإنما قتلها حتى أظهر شجاعة أمام ولدى . وكنت أدعو الله فى سرى ألا يقبل عرضى . وأخيراً يا ابنتى قال لى : وكأنما انتشلنى من يم كدت أغرق فى مياهه : « لا يا أماء ليس من الحكمة أن تفعل هذا الآن ، وإنما غداً صباحاً سننظف هذا الحمام وسنبحث عن مصدر هذا الصوت » .
قلت : كما تريد يا بنى . وكأنما الأرواح ستظهر فى النهار يا ابنتى أو كأنما الباحث عن العفارىت يمكن أن يعثر عليها .

— وفي الغد دخل ولدى وأنا وراءه والخدم من وراءنا فاذا الكلبة «عزيزة» وأمامها ستة أجراء ولدتهم أمس داخل الحمام المهجور الذي لم يسكنه بعدنا إلا الأطياف والأرواح .

— لم ينف هذا من أذهان الخدم أن الحمام مسكون وأن الأرواح ترقص وتغنى وتنادى وتئن وتعيش فيه عيشة دائمة . وظلت سيرة الحمام وناحية الحمام بالليل غيرها بالنهار ، ففي النهار يقربونه وينظفونه ويجلسون فيه ، فاذا ما غربت الشمس تركوه للعفاريت تظهر وتفعل فيه ما تريد .

ووقفت جدتي في حديثها وانصتت وقد سمعنا حركة أقدام آتية ، ونظرت جدتي نظرة من يرتاب في مصدر هذا الصوت . فراقبتها قليلاً ولكنني استطعت أن أخلص بسرعة من جو العفاريت الذي خلقه حديث جدتي وقلت لها ضاحكة :

ماذا؟ عفاريت جديدة !

قالت : يا ابنتي لا سمح الله . كفى الله هذا المنزل شر
الحزن الذى يؤثر فى أعصاب أهله فيرهف حسهم لسماع
أصوات العفاريت وحركاتهم . لم تعرف العفاريت طريقها
إلى منزلنا سواء أكان صدقاً أم كذباً إلا بعد أن انطفأ
سراج البيت ، بعد أن مات زوجى . كان صوته يطرد كل
وحشة وينفى كل إحساس نحسه نحو المهجور من الأشياء .
كان صوته يملأ البيت حياة ، فطوراً مرحاً وطوراً غضباً
ولكنه الحياة على كل حال ، لا الموت . منذ مات زوجى ...
وأردت أن أداعب جدتى قلت : ولم لم تتزوجى
ثانية يا جدتى ؟ إن زوجك مات وأنت فى شبابك .
فالتفتت إلىّ وكأنما كنت قد طعنتها بكلماتى . وكأنما
كانت ستندفع فى لومى ، لكنها تداركت نفسها وقد
فهمت أنى إنما أردت مداعبتها فاخطأت السبيل ، وقالت
فى لهجة مؤثرة حزينة :

— لا يا ابنتى ، ولا فى الدعاة أحب لك أن
تقربى مثل هذا الحديث . أنا واثقة أنك تقدرين
ما عملت . بل أنا واثقة أنك لو كنت مكانى ما سمحت
لك نفسك بأن تفعلى أقل مما فعلت .

قلت آسفة نادمة : ما أردت يا جدتى إلا مداعبة
بريئة ، فعفواً إن كنت قد آذيت عاطفة من عواطفك ،
فأنا أحرص ما أكون على ألا أمسّ عاطفتك ، ولو
فى دعاة .

وكأنما أسفت جدتى فقالت :

— أنا أعرف يا ابنتى بما تحسين ، وها أنا أقص
عليك شيئاً طريفاً فى هذا الصدد . عسى أن تكون
قصتى هذه أحسن ما نحتم به حديثنا الليلة ، فقد طال
الحديث وتنوع ، وتشتت أفكارنا فيه . فأصغى إلى :

— كان زوجى ضابطاً كبيراً فى الجيش ، سافر
مع أكثر أصدقائه ، وهم أزواج صديقاتى ، إلى حرب

الحبشة . وكان وداعه لنا يوم السفر مؤثراً بالغاً في التأثير ،
كانما كان يحس شيئاً مما قد قدر له . وكيف لا يحس
الجندي المحارب أن حياته في الموقعة معلقة بأوهى سبب ؟
كم كان كريماً وهو يوصي أبناءه وما يزيد عمر أكبرهم
عن الثامنة عشرة أن يطيعوني وأن يرعوني في غيابه !
سافراً يا ابنتي ، فكانت مهمتي شاقة في غيابه . ففوق
القلق الذي كنت أحسه عليه ، وفوق الخوف الذي كنت
أخافه مما يحتمل أن يُلم به . فوق كل هذا كان أطفالي
صغيري السن ، وكانوا يحبون كثرة اللعب وكثرة
التدمير . وكم كان اسماعيل شيطاناً في هذه المدة ! كان
كثير اللعب كثير الاتلاف . ولكن ولدي الكبير كان
أكثرهم هدوءاً وأوفرهم عقلاً . كثيراً ما كان ينهي إخوته
عما هم فيه . فكان منظره هذه يؤلمني جداً . كم كان يؤثر
في قوله لهم : إن أباهم يجب أن يعود ليراهم أحسن مما
كانوا عليه . كم كان حليماً معهم ، وكم كان شديد الأثر

في تهدئي كلما هممت أن أقسو على أحدهم في عقاب ! كأنما
المسكين قد أحس أن عبء هؤلاء ملق على عاتقه هو .
كأنما كان يحس سلفاً بما سيلقيه عليه الدهر من أعباء
ثقال . كأنما قد أحس أن تربية هؤلاء ، وشق الطريق
لهم في الحياة من واجباته هو في غياب أبيه .

— وازدادت هواجسى على جدك ، وبدأت أحس
أن شيئاً أصاب الجيش ، اضطره إلى هذه الغيبة . إن
الحرب هائلة يا ابنتي في كل عصر وفي كل مكان ،
ولكنها كانت أكثر أهوالاً ومشاقاً إذ ذاك . إن
الاختراعات الحديثة إن كانت قد أكسبت القوى قوة ،
وإن كانت قد سهلت سبل الفتك والدمار ، فإنها دون
شك سهلت الموت على أصحابه . أصبح الموت هيناً يسيراً
لا يكلف إلا عذاب دقيقة أو جزء من دقيقة . زادوا في
قوة الموت ، فزادوا عدد الضحايا ، ولكنهم لم يزدوا
ألماً على من قدّر عليه الموت .

— أما قديماً ، فكان الجندي يذوق الموت قليلاً قليلاً .
يسير وسط الصحارى القفرة على ظهر حصانه أو راجلاً .
فيتألم من مشاق الطريق وحرّه . كان العطش يفتك بهم
حتى يضطروا إلى مص الطين ليستخرجوا منه ماءً ،
وأخيراً يلقي الجندي العدو ، فقلما تصيبه طعنة تدفع إليه
الموت عاجلاً ، وإنما هي طعنة تفتح عليه أبواب الآلام
على اختلافها ، أبواب آلام آخرها الموت غالباً ، ولكنه
الموت بعد طول العذاب : يحس آلام الطعنة أياماً
بل أسابيع ، ثم آلام الخوف من الموت ، ثم آلام اليأس
والصبر اليأس الممض . وأخيراً يأتيه الموت متهادياً
متدلاً بعد أن يكون قد جَسَمَ فيه كل الفرج ، بعد أن
طال انتظاره له ليريجحه من يأسه وحزنه وألمه .

— كنت أقدر كل آلام الموت وأهواله ، فأشفق
على زوجي كل الشفقة . ثم أتصور حالي من بعده ،
وأولادي كلهم ما يزالون صغاراً يحتاجون إلى إرشاده

في الحياة ، فيزداد إشفاقى ويحز الألم في نفسى حزاً .

— ولا أظيل عليك ، فقد نفذ المقدور ودق ناقوس

الموت فى حياتى وحياة أبنائى ، فقير كل آمالنا ، وصبغ

كل أحلامنا بصبغة الموت اليأسفة الحزينة . جاءنى خبر

موت زوجى ، فلا أحاول أن أصف لك حزنى وآلامى ،

وإنما يكفى أن تعرفى أنه كان الشخص الوحيد الذى

كنت أعرفه وأعتمد عليه فى حياتى . لم يكن لى أخ ولا

عم ولا خال ولا أب . كان هو كل أقاربى ، وكان أبا

أبنائى ، فليس لهم من بعده غيرى . علىّ أنا وحدى وقع

عبّ تنشىء هؤلاء الصغار ، وإرشاد الكبار ومساعدتهم

على شق طريقهم فى الحياة . ولست أصف لك يا ابنتى

وقع هذا الخبر فى نفوس أطفالى وأولادى ، فوت عميد

الأسرة ليس من الخطوب المستهانة . هو الخطب الذى

يتجدد الحزن من أجله كل حين . كل أمر كان يكون له

فيه شأن ، كل عبّ كان يكفيناه حمله ، كل عمل كان يقوم

لنا به ، كل صغيرة وكل كبيرة تذكرنا به كل يوم
مدى الحياة .

— وكان يسكن جوارنا رجل متوسط السن ،
صديق لزوجي ، بل من أشد أصدقائه صلة به . ما كاد
يسمع بموت جدك حتى جاءنا يعزينا . فلقى أولادى
وقبلهم ، وانهمرت دموعه فاختلطت بدموعهم . وكان
هذا الرجل كريماً خيراً طيب القلب . فجعلها عادة من
عاداته أن يمر علينا كلما استطاع ؛ يسألنا حاجة يقضيها لنا ،
ويأتى أطفالى بلعب أو فاكهة أو أى شىء يكونون قد
طلبوه منه . وما كان يصل إلى باب المنزل حتى يرسل
إلى الخادم بأنه أتى ، وأنه يسلم على ويسألنى أهناك خدمة
يستطيع أن يقوم بها من أجلى ، أو من أجل أولادى ؛
وكنت أستثقل أن أذكر له كل طلباتى ، ولا أسأله إلا
ما اضطر إليه فيه اضطراراً . ولكن أولادى كثيراً
ما كانوا يطلبون منه أشياء يقضيها لهم ، وهو مرتاح

البال راضى القلب ، لأنه كان يشعر أنه يؤدي بذلك
حق الوفاء لصديقه الراحل .

ولكن يا ابنتى جاءنى يوماً ولدى ابراهيم ومعه
اسماعيل وقالالى : « يا أماه ان الرجل صديق والدنا سألنا أن
نعرض عليك امرأاً » . قلت : وما هو ؟ فارتبك الكبير
ولكن اسماعيل أخذ يضحك ويأتى بحركات من يريد
أن يخفى ضحكه . قال ولدى الكبير : يا أماه ، إنه يعرض
عليك أن تكونى له زوجة ، ففى ذلك راحة لك ولأولادك .
— وصعد الدم حاراً فى وجهى ورأسى فاهبهما .
وأخذت أسب الرجل سباً شديداً واندفعت نحو حجرة
زوجى التى ظلت مقفلة منذ وفاته . ومن صندوق كبير
كنت قد وضعت فيه كل ملابس زوجى الراحل
أخرجت سوطاً سودانياً كان يحمله المرحوم ، وأسرعت
بالسوط أريد أن أنزل إلى صديق زوجى أضربه به ضربة
تذكره ماهو الوفاء للزوج !

— ورآنى اسماعيل الشيطان ، وأنا أخرج السوط ،
فعرف اللعين قصدى . وعدا نحو الصديق يقول له :
يا عم ، أسرع ، اهرب ، إن أمى آتية لتضربك بسوط
المرحوم أبى . ويصف لى ابراهيم ولدى كيف بُهِتَ
الرجل ودُهش ، وكيف فرَّ هارباً قبل أن أدركه .

— كان يرى فى طلبه شيئاً عادياً ، فسادام أولادى
محتاجين إلى من يرعاهم ، وما دمت وحيدة فى هذا البلد
محتاجة إلى من يقوم لى بأعمالى الخارجية ، فمن المعقول
أن يتقدم هو إلينا يعرض علينا أن يقوم بكل هذه
الأعمال ، وأن يكون هذا واجباً عليه بزواجه منى .

— كم سخطت على هذا الرجل وكم لعنته . وظلمت
مغيظة منه أياماً بل أسابيع . ومن يومها يا ابنتى أرسلت
إليه ألا يخطو عتبة دارى أبداً . لقد ظن الرجل أن
احتياجى إلى من يقوم بأعمالى وأعمال أولادى يبرر أن
أخون ذكرى زوجى . زوجى الذى مات ميتة مخيدة

فى سبيل الوطن بل فى ميدان الحرب ، غريباً عن وطنه
بعيداً عن أهله . زوجى الذى عاش شريفاً ومات مجيداً ،
وكان مخلصاً لى ولأولادى كل الاخلاص ، وكان محباً
لى ولهم كل الحب ، وكان يحترمنى أشد احترام . لا يا ابنتى ،
لو كان زوجى أقل مما كان ما تزوجت من بعده ، فكيف
به وهو ما وصفت . ثم أولادى ، أليس هؤلاء حق على ؟
فكيف أتركهم لأعنى بزواج جديد !

— ولكن اسماعيل ابنى أبى إلا أن يجعل من قصة
طلب الزواج هذه نكتة مضحكة يقصها على صديقاتى .
فما يكاد اللعين يصل بيت إحداهن حتى يقول لها :
« أتعرفين يا خالة ما صنعت أمى بفلان ؟ » فتقول : « كلا » .
يقول : « لقد همت أن تضربه بسوط المرحوم أبى ، لأنه
طلب أن يتزوجها » . ويتفنن اسماعيل فى الوصف ، وصفى
أناثارة هائجة ، ووصف الرجل دهشاً مبهوتاً . فتضحك
الصديقة ويضحك كل من معها .

— وكانت صديقاتي يلقيني بعدها فيمنتي على هذا العمل ويقلن لى : « أما كنت تستطيعين أن ترديه برفق ؟ »
فأقول لهن : كلا ، أنا لا أعرف معنى للرفق وأنا نائرة ، ولا أفهم أن ذكرى المرحوم زوجى تمس أو تحدش ولا أثور .
— وكرت الأيام سريعة في دورتها كأنما عصا تلهبها فتعدو لا تنظر إلا إلى الأمام ؛ فإذا صديقاتي كلهن مثلى أرامل لم تتزوج منهن واحدة بعد موت زوجها في حرب الحبشة . وكن يتندرن ويقلن لى : « كله منك أنت ، فلولا ما صنعت فى فلان لما ابتعد الرجال عنا ، ولا نفروا منا . لم يطلبنا أحد لأنهم ظنوا أننا سنضربهم بالكرباج السودانى ، كما هممت أن تفعل أنت » . فكنت أقول للقائلة : كلا ، خيراً فعلت ، إن العمر واحد يجب أن يعاش على أكمل وجه ، أما مك أطفالك حقوقهم عليك أولى من حقوق زوج جديد . لا ، خيراً فعلت ، وسيدكر لك أبناؤك يوماً أنك وضعت واجبك نحوهم فوق كل شىء .

كانت القبيلة هادئة آمنة سائرة في أعمالها
العادية . فاذا واحد منها يعدو إليها قائلاً في خوف
وهلع : « العدو » . وأنصت أهل القبيلة ، فاذا ديب
خيل العدو يكاد يكون مسموعاً . وكانت أخبار وصلت
القبيلة عن عتو هذا العدو وجبروته ، فلم ترم من العقل
أن تصبر لتحاربه ، وتصده عن وطنها . وإنما رأت أن
الأيقي لها والأسلم أن تحزم أمتعتها في سرعة ، وأن تهاجر
هذا الوطن الذي آواها زمناً ، كارهة هذه الهجرة ، تحس
لها المأ دفيناً بليغاً . وكانت أصوات العدو تقرب حيناً
حيناً . وكانت خيل القبيلة تعدو بما عليها نحو الجنوب
إلى الغرب .

ووقف شيخ القبيلة يؤدى أمانة المشيخة إلى آخر
لحظة من لحظات الأمن . يدفع هذا ويحث ذاك ، حتى
يتسنى له أن يسير فى الخلف . فان شيخ القبيلة حقاً يحب
أن يواجه عدو قبيلته من حيث أتى .

وغربت الشمس ، وتركت وراءها شعاعاً من
النور يشع فى الأفق ، كأنما هو ذكرى تبعثها إلى أهل
القبيلة . ذكرى يوم من أيام وطنهم مشمس جميل . وكان
يوماً فذاً بين أيام هذه القبيلة ، التى لم تكن لترى الشمس
إلا نادراً ، ولكنه لم يحتم إلا بحادث فذاً أيضاً ، هو قدوم
العدو الجبار .

وفى الليل القارس البرد ، وقد اشتد بالقبيلة
الجهد والتعب ، وقفت قليلاً من سيرها الجنوبى السريع
لتتفقد أفرادها ، فاذا منهم من ضل ، وإذا منهم من قتل
برصاص العدو . وإذا هذه الأم البائسة التى تضم ابنتها إلى
صدرها . هذه الأم التى عهد بها شيخ القبيلة إلى فارس

قوى ليهرب بها إلى المدينة . إذا هذه الأم تسأل عن
الشيخ زوجها ، فيخبرها غير واحد أنه قتل برصاص
العدو . وأنه صاح بهم ، وهو يجاهد الموت : « أن جدوا
في سيركم فلا نجاة لكم إن لم تبلغوا المدينة قبل الفجر » .
وهكذا أدى الشيخ واجبه إلى آخر لحظة من لحظات
الحياة .

وما سمع الفرسان قول بعضهم ، حتى شدوا رحالهم
وركبوا أفراسهم ، واستأنفوا سيرهم السريع الخيف .
لا يعبأون بشيء حتى ولا بتلك الأم ، التي مازالت تتوسل
إليهم أن يتركوها تعود تبحث عن جسم زوجها لتموت
إلى جنبه .

وبدأت أجراس الخيل تدق دقاتها من جديد ،
سريعة مضطربة خاطفة ، وبدأت قلوب الهاربين المهاجرين
الجانحين تدق دقات لا تقل عن دقات الأجراس
اضطراباً وعنفاً وسرعة . وما كاد نور الفجر يخلط بسواد

الليل يياضًا ، حتى لمحو أبواب المدينة ، فارتموا إزاءها ،
منهوكين متعبين جائعين ، لا يتصلون بالحياة إلا بأقل
الأسباب وأوهاها .

وفي الصباح قام أهل المدينة من رقاد سعيد هنئ
مريح ، ليروا هذه القبيلة الجائعة التعب ، منبثة في
شوارعهم تطلب الطعام ولو بأعز ما يمكن أن يبذله
الانسان ، تطلب الطعام ثمنًا لفذات الأكباد .

وكانت هذه الأم بعد أن قتل زوجها ، وحيدة
بائسة ، تضم فتاتها الصغيرة لم تبلغ بعد الرابعة إلى صدرها
الذى لم يقو الحزن على أن يلهبه لضعف هذا الجسم ، وقلة
ما يسرى فيه من دم الحياة . وكانت دموع الأم تنحدر
من عيناها على جسم هذه الصغيرة الباكية ، فتؤلف منظرًا
مؤلمًا غاية الألم . كانت الأم جائعة ، وكانت الطفلة على
وشك الموت ، وليس ليهما ما يبيعان أو يستبدلان به
طعامًا . والجوع عاتٍ جبار يخول لصاحبه أى عمل ،

بل أى جريمة . ولكنه لم يستطع أن يقهر قلب تلك
الأم ، فلم تستطع بعد أن تنزل عن ابنتها ثمنًا لطعام تسد
به حاجة بطنها النائر .

وطافت الأم وابنتها فى الشوارع ، بطيئة الخطى
واهية تعب ، تحاول أن تسأل الصدقة من المارين ،
فيخونها لسانها ولا تقوى على مالم تتعوده نفسها من قبل .
وعلى باب قصر عظيم وقفت تنظر إليه . كأنما
تسأل ربها السرّ فى أنها هى وابنتها تبكيان كسرة خبز
فلا تجدانها ؛ بينما صاحبة هذا القصر تنعم بكل ما فى الدنيا
من نعيم . وفُتحت نافذة القصر ، وأطلت منها السيدة
صاحبتّه ، جميلة بدينة ، عليها آثار النعمة واضحة جليلة ،
وآثار الاطمئنان والرضى أوضح وأبين . ولحت تلك
البائسة تبحر الخطى ، حاملة عبأها الخفيف المولول الباكي .
فأرسلت خادما ينادى تلك المهاجرة .

وكان منظر المهاجرين الجائعين فى عاصمة

الأتراك ، منظرًا شائعًا في هذا العصر . ولقد سمعت
السيدة بوصول قبيلة طاردها أعداؤها ، فهاجرت من
بقيعتها حتى وصلت المدينة ، تعرض بناتها وأبنائها
في سوق الرقيق ثمنًا للحياة . وفهمت السيدة أن هذه
لا بد أن تكون مهاجرة ضلت السبيل إلى سوق الرقيق .
ولما رأت السيدة هذا العبء الصغير على كتف المهاجرة ،
قالت لها في لهفة كأنما وجدت طلبتها : « أهذه ابنتك ؟ »
قالت : « نعم » قالت : « أتبيعينها ؟ » قالت : « كلا » .
ولكن الصغيرة ذات العينين العسليتين الواسعتين
المحدقتين من الضعف ، ذات الشعر الكستاني الناعم
الطويل ، ذات الأنف الدقيق والقم الصغير أثارت شيئًا
غير قليل من العطف والحنو الشديدين في قلب تلك
السيدة العقيم .

فقالت السيدة : « انك جائعة فقيرة مهاجرة قد
يلحقك الموت ، فتعذب ابنتك الصغيرة أمر عذاب ،

فما ضرك لو بعثها فأنتقذت حياتك وحياتها . هل أنت أول من يضطرها الجوع الجبار إلى بيع فلذة كبدها ؟ لست الأولى وثقي لن تكوني الأخيرة » .

قالت البائسة : « عفواً سيدتي ، لأموتُ جوعاً أحب إليّ من أن أقبض ثمناً لابنتي ، لن تكون ابنتي أمة أو خادماً ليشبع بطني وبطنها . لا لن أفرض على نفسي ولا على ابنتي ذلاً أكثر مما فرضت علينا الحياة » .

قالت صاحبة القصر في تأثر عميق : « لن تكون ابنتك أمة ، ستكون سيدة ، سيدة هذا القصر الواسع العظيم . ستكون ابنتي أنا لأنني عقيم أشتاق إلى الأطفال أمرّ اشتياق وآله » . وبكت السيدة وهي تقول : « لن أحرملك ابنتك ، وإنما كل ما أطلبه منك هو أن أشاركك فيها . ولن تفيدني أنت من هذه الشركة ؛ فانك كما أرى تعفين عن أن تفيدني من ابنتك شيئاً ، وإنما التي ستفيدني ابنتك . لا تكوني سبباً في موتها ، إنها

صغيرة بريئة، ولئن ملكتِ حق نفسك فأنت لا تملكين حقها . هذه فرصة قد لا تسنح لها في حياتها، أن تُربي وأن تتعلم وأن تهذب وأن تكون كابنتي أنا . فكري في الأمر قليلاً . . . »

ولكن بكاء الطفلة وصياحها : « أماء إني جائعة ! إني جائعة ! » أوقف كل تفكير ولم يبق للأم المسكينة إلا أن تسلم . فقالت في صوت تخنقه العبرات : « ولكن سيدتي ستسمحين لي أن أراها كل يوم ، أو كلما زاد بي الحنين ؟ » . قالت صاحبة القصر الكريمة : « البيت بيتك ترينها وقما تشائين » . وهمت الأم بأن ترحل . فقالت لها صاحبة القصر : « وإلى أين ؟ » والآن فقط فكرت الأم ، وإلى أين تسير ؟ ليس لها مكان تأوى إليه ، فقد جابت طرق العاصمة خلال هذين اليومين فلم تجد أى مأوى . واستحلفتها صاحبة القصر أن تظل عندها ضيفة حتى تجد لهذا السؤال جواباً : حتى تعرف إلى أين تسير .

نالت الأم من إكرام السيدة الكريمة
ما أنساها بعض آلام الذل المفاجيء الذى طرأ عليها ،
وبعض آلام الطريق الشاق السريع بين الجبال ليلاً ،
والطريق الهادىء الحزين فى شوارع العاصمة ، وبعض
آلامها وهى شريدة جائعة خائرة القوى محطمة الأمل .
ولكن مثل هذه الآثار لا تمنحى هكذا سريعاً ؛ فسرعان
ما أحست الأم آلاماً لم تمهلها أياماً حتى أودت بحياتها .
ظلت الصغيرة فى القصر مكرومة معززة ، تبذل
السيدة الكريمة من مالها ومن وقتها ومن حبها وعنايتها
كل ما يمكن أن تبذل أمُّ حقاً فى سبيل ابنتها . فكبرت
الصغيرة وإذا هى شابة جميلة مثقفة متعلمة بقدر ما كانت
فتيات عصرها مثقفات متعلمات . تجيد العزف على آلة
أو آلتين من آلات الموسيقى ، وتعرف آداب الاجتماعات
على النحو التركى معرفة تامة متقنة حتى لتكاد تكون
طبيعة ثانية لها من كثرة ما دربت عليها وما مارستها .

وشاء القدر أن يفضب السلطان على صاحب
القصر زوج السيدة الكريمة ، فأمر بأن يُبنى هو وأسرته
وأن تباع كل ممتلكاته حتى إماؤه وعبيده . وصعب
على السيدة أن تباع الفتاة بعد أن أحبتها وبعد أن أنفقت
في سبيل تعليمها وتأديبها ما أنفقت . ولكن أمر
السلطان جبار يجب أن يطاع ، ثم هي لا تستطيع أخذ
الفتاة معها وهي مهاجرة هي وزوجها بلا مال ولا زاد .
وفكرت السيدة طويلاً في أمر الفتاة ، وأخيراً رأت
أنها لما لها من جمال ، وما هي عليه من تعليم وتربية قد
تُباع في سوق الرقيق إلى سيد عظيم يعنى بها ، ويعهد لها
العيش الرغيد الهنيء . وجاء السيدة بائعُ الرقيق ، فأوصته
بالفتاة خيراً ، وقالت له : « إن لم تجد لها شارباً كريماً فإياك
أن تبيعها ، وإنما عد إليّ بعد أيام في ضواحي المدينة
فأخذها منك ، وسأ كافئك على عمالك » . قال : « سيدتى ،
اطمئنى فإن خديوى مصر اسماعيل باشا قد أرسل في طلب

أربعين من الجوارى الحسان ، لأنه يريد أن يؤلف منهن
فرقة للموسيقى ، تعزف له فى القصر . وقد سمعت أن
فتاتك تجيد العزف على بضع آلات موسيقية ، فسيكون
ثمها غالباً ، وسيكون مصيرها إلى سراى خديوى مصر ،
حيث تعيش فى نعيم القصور وعز الملوك .

فرحت السيدة أيماء فرح ، فقد أصبح يستحيل عليها
أن تُتيح لفتاتها النعيم الذى أتاحته لها إلى اليوم ، وكذلك
يستحيل عليها أن تراها — وهى التى تحبها كابنتها — تذوق
الذل والفقر والجوع ، بعد العز والنعيم ورغد العيش .
وبيعت الفتاة وجاءت مصر ، وأصبحت ضمن
فرقة موسيقى الخديوى اسماعيل . وعاشت فى القصر
عيشة هنيئة سعيدة . كانت هى وبنات فرقها كالأخوات
حقاً ، يمضين اليوم كله فى هناء ، وعزفٍ على آلات
الموسيقى . حتى إذا جاء وقت الطعام سواء أكان ظهراً أم
عشاء ، ارتدين ملابس معينة ، وعدون إلى غرفة الطعام

الفاخرة ، يعزفن للخدوى وأضيافه أثناء تناولهم الطعام . وكان منظر هؤلاء الفتيات جميلاً حقاً ، وقد ارتدين كلهن ملابس واحدة ، كملايس الرجال من القطيفة الحمراء أو الخضراء ، مزينة بأزرار من الذهب ، وأشرطة مقصبة . كانت فرقهن جميلة حقاً ، جميلة بأفرادها وبملايسها وبعزفها .

وكان لهؤلاء الفتيات مكانة خاصة في القصر ، فهن أصحاب فن جئن ليُخدمن لا ليُخدمن . كانت جوارى القصر و « أغواته » يخدمونهن ويقضون لهن كل حوائجهن . وكان الخدوى الكريم يصدق عليهن المال اغداً . فال في الصيف وآخر في الشتاء للكسوة وما إليها . ثم مرتب كل شهر لكل واحدة منهن ، كأنه أجر عما تقوم به من عمل .

وكانت العادة المتبعة إذ ذاك في شراء الرقيق ، أن يسمى الشاري العبد أو الجارية الاسم الذي يروق له ، وأن

يذكر هذا الاسم في عقد الشراء . وسمى الخديوى الفتاة
«إنجساس» ، فعُرفت بهذا الاسم ، ونسب اسمها القديم تماماً .
عاشت «إنجساس» عيشة هنيئة حقاً في القصر
ولكن الزمن لا بد أن يسير ، ولا بد في سيره من تغيير
وتبدلت حال خديوى مصر ، فأراد أن يتخلص من
هذا الجيش العظيم من فتيات القصر ، فأخذ يزوجهن
من ضباطه وحرسه واحدة إثر واحدة .

هذا ما قصته على جدتي أمس ، وهى تتم حديثها
إلى الليلة :

— وبين هذا الحرس حرس السراى ، كان ولدى
الكبير يا ابنتى ، وكان وفياً لسيده ، أميناً فى خدمته .
فكان مقرباً منه محبوباً لديه . وأراد الخديوى أن يزوجه
فتاة طيبة كريمة جميلة من فتيات قصره ، فزوجه تلك
الفتاة «إنجساس» .

— وجاءت «إنجساس» إلى بيتنا غريبة عنا ، بعيدة
عن جوتنا كل البعد ، ولكنها في الوقت نفسه تثبت
لرائيها لأول مرة أنها جديرة بالحب والاحترام . زوجت
أولادى بعد ذلك واحداً بعد واحد ، فلم أجد من
أزواجهم واحدة نزلت من نفسى منزلة «إنجساس»
لا بعد طول العشرة ولا قبله . أحبتها يا ابنتى ، فكان
كل يوم يمر بعدُ يثبت لى أنى لم أكن مخطئة فى هذا
الحب ، بل يثبت لى أنى مقصرة فيه ، فأود لو أستطيع
أن أحبها أكثر مما أحيت .

— بعد عن القصر وخيره العميم الوفير ، بعد المال
الذى كان فى يديها وافراً كثيراً ، بعد هذا العدد الكبير
من الجوارى السود « والأغوات » كلهم يخدمونها
ويقضون لها حاجاتها ؛ جاءت إلى بيت زوجها ، فإذا
المال لا بد فيه من اقتصاد حتى ينفى بحوائج الاخوة والأم ،
وإذا الخدم عدد محدود يشاركها فيهم كل من فى الدار ،

وإذا الملبس وإذا المأكل وإذا كل شيء ينقص عدده
وتقل قيمته . ولكنها كانت دائماً سعيدة ودائماً راضية ،
لم أسمعها يوماً تشكو ، ولم تشعرني يوماً أنها تحن إلى
حياة القصر .

— كانت تحب ابني وتحترمه احتراماً عظيماً ، وتقوم
على خدمته ، وهي التي لم تخدم انساناً قبل في حياتها .
عاشت في كنف الأم أربعة أعوام ، كان لابد لها فيها من
أن تُخدَم ، وعاشت في كنف السيدة التركية الثرية عشرة
أعوام مخدومة مكربة معززة ، فقد كانت تعامل كأنما
هي ابنة صاحبة القصر حقاً ، وعاشت في سراي الخديوى
عزيزة مكربة مخدومة يُحرص على رضاها . وجاءت إلى
بيتنا ، فاذا فقر نسبي ، وإذا واجبات تلقى على عاتقها إلقاء
فتقوم بها كلها مبتسمة راضية .

— كانت يا ابنتى تحبني حقاً وتشعرني أنى منها
بمنزلة الأم . تحنو علىّ وتتفانى في راحتي وخدمتي ، فإذا

مرضتُ جلستُ بجوارى الليالى ساهرة لا تنام ولا ترضى
بأن يعنى بى أحد سواها . وكان ابنى يحبها حبا جما ،
ويحرص على رضاها كل الحرص ويحترمها كل الاحترام .
عاشت بيننا معاشرت معززة كريمة ، لا تقصر فى واجب
نحو أحد منا ، فلا يقصر أحد فى واجب نحوها . عرفت
كيف تستميل قلوبنا ، وكيف تشعرنا بأنها لا تمتاز منا
إلا بأخلاقها الكريمة النبيلة . زوجت ابنى رأفت فكانت
زوجه جافة شرسة الطباع ، تريد أن تفرض احترامها على
كل من فى البيت ، فلا تظفر إلا بالسخرية والبغض .
كان الخدم لا يحبونها ، وكان أبنائى الصغار يأنفون من
أن يضحكوا معها أو يسألوها شيئا ، أو يعاملوها أى
معاملة . إلا ولدى اسماعيل فقد كان شيطانا معها كما
هو فى كل أطوار حياته ومع كل من يعرف . كان يحاول
كثيرا أن يغيظها فتثور وتفور وتسب وتغضب وتتركنا
جميعا لتعصم فى غرقها فلا يسأل عنها أحد ، فاذا بها

تعود ثانية مفتاة حاتقة . وكان اسماعيل يفيظ زوج ابني الكبير «إنجساس» فتغتاظ لكن في غير ثورة ولا حق . تغتاظ قليلا ولكنها ما تلبث أن تضحك معنا ومعه ، وما تلبث أن تحاول نصحه بألا يعود إلى ما عمل فتظفر منه بالحب والولاء ، ولا يعود إلى غيظها إلا كلما ألت عليه غريزته إلحاحا .

— شتان بينهما يا ابنتي ، زوج ابني رأفت و«إنجساس» كانتا منى في منزلة واحدة من القرابة ، ولكن أين منزلة الواحدة من الثانية في قلبي ؟ بل أين منزلتها من الأخرى في قلب كل من في المنزل ، سادة كانوا أم خدما ؟ إن الأخلاق والمعاملة إن لم تؤثر شيئا في روابط القرابة فإن أثرها فيما هو أعظم وأدوم وأهم — في الحب — أثر عظيم . — وماتت زوج ابني رأفت ومات هو كما قصصت عليك ، وظلت «إنجساس» معي ومع ابنتي في البيت بعد أن وظف ولداى الصغيران في الجيش والادارة فتركا

العاصمة إلى حيث كانا يؤمران بالمسير في سائر أنحاء
القطر . لم يبق في البيت إلا أنا وإلا هي وزوجها
وأولادها وإلا ابنتي الوحيدة التي كانت لها بمثابة الأخت .
وكانت صديقاتي كثيراً ما يزرنني فكانت ترحب بهن
وتجلس معهن ، فما أسرع ما أصبحت صديقة لهن أيضاً
يحببنها كجهن إياي ، ويأمنن بمجلسها كأنسهن
بمجلسي . وهي وإن كانت لا تتقن العربية أصلاً فإنها
سرعان ما تعلمتها وأصبحت تتفاهم بها في يسر ، بل
سرعان ما أتقنتها كتابة وقراءة إتقاناً إن قلّ فليس يقل
كثيراً عن إتقانها التركية لغتها .

— لست أقص عليك يا ابنتي ما قاسته «إنجساس»

من أولادها ، فهذا تاريخ جديد تعلمينه حق العلم ، وإنما
أقص عليك حديثاً قديماً عنها لتعرفي إلى أي حد وصل
بها نبل الاحساس ، وإلى أي حد كانت كريمة الأخلاق
قوية الاحساس بعزة نفسها وكرامتها .

— كان ابني يعمل أحياناً في البورصة فيضارب
على الأموال والأقطان ، وكان بحكم عمله هذا كثير
الاتصال بالأجانب الأغنياء من نزلاء القطر . فهذا عملهم
المستحب الذي انفردوا به ، فعرفوا كيف يسيطرون
على أسواق البلد التجارية ، وكيف يستنزفون أموالها
استنزافاً . وكانت كثرة هؤلاء من اليهود ، فهم — كما
تعلمين — أهل تجارة ومال منذ وجدوا في التاريخ . وكان
هؤلاء اليهود كثيراً ما يزوروننا وكثيراً ما يزورهم ،
وكثيراً ما يولم لهم ويولمون له . ولأحد هؤلاء اليهود
كانت ابنة شابة جميلة خليعة ، كثيرة التطرف والتقرب
من الرجال ، شأن كثيرات من أمثالها . والخلاعة
والتطرف هما السلاح الذي لا يستطيع الرجل أن يقاومه
في حينه وإن قاومه بعد . فكان ان تسلطت على ابني
تسلطاً يبيح لها أن تقبل هداياه وما ينفق عليها من مال .
— وشاع خبر تلك الصلة في أوساط الرجال ، فجاء

ابن أكثر من صديق ونصحه بأن يبتعد عن تلك اليهودية، فاليهود قوم يسعون وراء المال في كل آن وفي كل مكان . وصحبة هذه اليهودية لن تكلفه ما ينفق عليها من مال فحسب ، بل ستفتح عليه أبواباً أخرى لاستنزاف المال ، لن يستطيع هو أن يسدها ، وهو الذى يعرف للأخلاق وزناً وللمواطف قدراً .

— وكنت أسمع أخبار هذه اليهودية ، فأخفيها عن «إنجساس» اخفاء ، حتى لا تعرف فتتألم . وكان ولدى ، والحق يقال ، يُحس أنه مندفع في تيار لا يليق به ولا بزوجه التى يحبها ويقدر مكاتها . فكان يتظرف لزوجه ، ويفدق عليها كثيراً جداً من حبه ومن احترامه ، حتى لا تحس تغيراً في معاملته لها . كان يسرف أحياناً في احترامها ، وينفذ لها رغائب ما كان ينفذها لها من قبل . وكان يشعرها بحبه لها إشعاراً لم يحاوله من قبل . وكانت هى تقبل منه هذا الاحترام والحب الزائدين عما ألفت

منه بفرح ظاهر ورضى عظيم .

— وكنت أشفق عليها كثيراً حين كانت تجيئنا تلك

اليهودية مدعوة مع أبيها أو أمها ، فتقابلهما استقبالا حسناً

لائقاً بمقام صديق الزوج . وكانت تودعهما كما استقبلتهما

بالحفاوة والاكرام . فكنت أسرف في نفسى : آه لو عرفت من

أمرها ما تجهلين لرددت إليها الإساءة بإساءة على الأقل .

— وكنت أخلو بولدى ، فأحاول أن أرجعه ،

فكان يقول لى دائماً ، بل كان أول ما يبدأ به قوله :

« أشعرت » « إنجساس » بشىء ؟ » فأطمئنه ، ولكنى أعود

فأحذره قائلة : إنها إن لم تشعر اليوم فستشعر غداً ،

فماذا يكون موقفك منها ؟ وهنا كان يصفر وجهه

ويتألم . هنا كان يعد بأنه سيقطع كل صلة تربطه بتلك

اليهودية فى فرصة سانحة . هنا كان يكاد يبكى ، وهو

يستحلفنى أن أخفى الأمر على « إنجساس » حتى لا تألم ،

فإن ألمها كان آخر ما يستطيع أن يتحمل .

— ومرت الأيام وإذا زوج يتقدم لتلك اليهودية .
 فينتهز ولدى هذه الفرصة ليقطع صلته بها ، فيدعوها هي
 وأباها وأما إلى ولية ، بمناسبة زواجها ليقدم لها هدية
 ثمينة ، هي كل ما كانت تطمع فيه تلك اليهودية من صحبته .
 — وما إن جاء يوم الوليمة حتى حادثه في أمر
 اليهودية ، ورجوته أن يعدنى أن تكون هذه آخر
 زياراتها لبيتنا ، وأن تكون هذه آخر مرة يتصل بها
 أو بأبيها أى اتصال . ووعدنى ابنى بهذا ، فكدت أبكى
 من الفرح ، وإذا أنا أخرج من غرفته فاذا « إنجساس »
 داخلة إليه تحمل ملابس لتساعده على لبسها ، وما إن
 رأتنى مضطربة من فرحى حتى سألتنى : « ما بك يا أماء ؟ »
 — قلت : لا شىء يا ابنتى . قالت : « كلا ، إنك
 مضطربة وأخشى أن يكون ابنك سبب هذا الاضطراب ،
 أفهمينى ما بك فانا معشر النساء أليق بأن يفهم بعضنا
 بعضاً » . قلت مؤكدة : لا شىء يا ابنتى . قالت وكأنها قد

صعب عليها أن أكتمها شيئاً وهي التي لم تخف على شيئاً
قط ، بل لم تتعود منى كتماناً .

قالت : « أماء ! إن كنت تظنين أنني لا أعرف من
الأمر شيئاً فأنت خاطئة » . قلت وقد أحسست أنها
تقصد بالأمر نفس هذا الذي كنت أخفيه عليها : وأى
أمر ؟ قالت : « أمر الفتاة اليهودية » . قلت : وما تعرفين
عنها ؟ قالت : « كل شيء » . قلت وأنا أحاول آخر محاولة
في يأس لأخفي عليها الحقيقة : وهل هناك شيء مهم خاف
عن هذه اليهودية ؟ ما لها ، فتاة عادية كغيرها من
الفتيات اليهوديات والانجليزيات اللواتي يزرن بيتنا مع
آبائهن وأمهاتهن . قالت في تأثر عميق : « أمى ! لا تحاولي
أن تخفي على ما أعرف ، بدل أن تحاولي مساعدتي على
احتمال ألمي الخفي . إني أعرف صلة زوجي بهذه اليهودية .
إني أعرف كل شيء » . قلت : ومن أدراك ؟ وكيف
استطعت أن تظلي هكذا ، وكأنك جاهلة كل شيء ؟

قالت : « حفظاً لكرامتي سكتُ وتأملت وحدي .
 كنت بين أمرين : إما أن أحتمل في كتمان كما فعلت ،
 وإما أن أعلن معرفتي الأمر ، فإن أعلنت معرفتي فلا بقاء
 لي ثانية واحدة بين زوجي وأولادي . لن أستطيع يا أمي
 أن أمكث مع زوجي يوماً واحداً والناس تعرف أنني
 أعرف أنه لا يحبني أو أنه يخونني . لا يا أمي ، إن كرامتي قبل
 كل شيء ، قبل نفسي ، وقبل أولادي ، إن أولادي يجب
 أن يكونوا كراماً فلا ينبغي أن يرضوا لأهمهم إلا الكرامة .
 وما كنت أخفي الأمر وأتحمل في صمت لولا أنني قدرت
 الأمر تماماً ووجدت أن كرامتي لا تمس فيه . كان أمامي
 زوجي ، رجل أحببته وأحبني ، بل ما زال يحبني حقاً ،
 ويحاول أن يسترضيني ؛ رجل لم يهني يوماً بكلمة واحدة
 به بعمل ، وهو يحاول بكل الوسائل أن يخفي عليّ الأمر
 الذي يشعر أنه يمس كرامتي ، قلت في نفسي لعلها غلطة
 ومن ذا الذي لا يغلط من بني الانسان ؛ لعلها هفوة تورط

فيها في ظروف قاسية ؛ لن أقف في سبيله الذي يريد أن يصلح به هفوته . كنت أشعر بندمه منذ أول يوم اتصل بتلك اليهودية ، كنت أحس هذا الاحترام وذاك الحب اللذين لم أعهدا منه بهذه الوفرة ، كنت أحس أنه في أزمة نفسية وأنه يحارب نفسه من أجل ، فلم يكن أمامي إلا أن أساعده على هذه الحرب . فتجاهلت الأمر أمام كل انسان إلا أمام نفسي . لكن تأكدي يا أماء أنني لو شعرت لحظة واحدة أنه يهينني أو أنه يجب أحداً غيري ، أو أن حبه لي قد نقص ، تأكدي لو لاحظت عليه أي تغير في معاملته لي ، ولو لم أشعر حقاً أنه يجاهد نفسه جهاداً شاقاً من أجل أنا وأنه يشعر بالندم على عمله ولكن لا يمكنه لأنه ورط نفسه أمام الناس ، لولا هذا لكان بقائي معه تحت سقف واحد مستحيلاً . تأكدي أنني كنت آخذ أولادي وأهيم بهم هاربة إن لم أستطع مطلقاً . كنت أفضل أن أحتل آلام الفرقة من أبنائي

ولا أحتمل آلام الشعور بالكرامة المجروحة ، وآلام
الشعور بما سيحسه أبنائي نحوى يوم يكبرون ويعرفون
أن أهم فضلت شيئاً مهما جل على كرامتها . احتملت
آلام الغيرة التى تحسها كل امرأة ، والتى يحسها كل
رجل يشعر أن أحداً يشاركه عواطف من يجب ،
واحتملت آلام التفرد بالألم ، ومحاولات إخفاء الألم
طوال سنة كاملة لا شىء إلا لأنى كنت أشعر أن زوجى
إذا ما جلس إلىّ كان يستعطفنى بكل نظرة من نظراته
وكل حركة من حركاته أن أساعده على أزمة نفسية .
كان كل شىء فيه وكل شىء يأتىه كأنما ينادينى : ساعدنى
فانى سأقلب على نفسى من أجلك أنت . كنت اذا قال لى
إنه يحبني حباً لم يحبه ولن يحبه أحداً فى حياته ، كنت إذا
ماردد هذه الجملة ، وكثيراً ما رددتها فى السنة الأخيرة ،
أشعر انه يكررها محاولاً أن يقنع بها نفسه هو قبل أن
يقننى أنا .

أما اليوم وقد واثته فرصة لأن يقطع صلته بها ،
فتأكدي أنى لن أسامحه بعدها إن لم يقطعها ، ولكن ثقي
أيضاً أنى لن أهده بهذا ولن أعلنه بما عزمت عليه ،
فأنتِ وهو أدري بخلقى .

— استمعت إليها يا ابنتى وأنا فى دنيا أخرى مما
كنت أحس به من مختلف الاحساسات ، فمن عطف إلى
إعجاب إلى حب إلى حنو . وأخيراً خرجت من هذه
الاحساسات باحساس واحد هو أنى أستمع لسيدة نبيلة
حقاً . سيدة كريمة النفس أبية تضحى فى سبيل زوجها
بكل شئ إلا بكرامتها . سيدة لا كسيدات اليوم
اللواتى لا يضحين فى سبيل أزواجهن إلا بكرامتهن .

— منذ ذلك اليوم يا ابنتى اختفت اليهودية من
حياتنا اختفاء تاماً ، جاءت هذا اليوم إلى الوليمة وقدمت
لها « إنجساس » هديتها ، أو ثمن الساعات التى تقاضت
نمها من ابنى مرات ومرات ، ثم خرجت من بيتنا ضيفة

مودعة بالاكرام والاحترام ؛ ولم تعد منذ ذلك اليوم
لا إلى بيتنا ولا إلى مجالس ابني . اختفت من حياتنا تماماً
ولم يعلم ابني أن زوجه « إنجساس » أحست من الأمر
شيئاً . سحابة مرّت في حياتنا كان هو أسعد منا بزوالها .
سحابة خرجت منها « إنجساس » موفورة الكرامة
عزيزة النفس . سحابة ما أخطرها على الحياة الزوجية ،
وما أقل ما تخرج منها هذه الحياة سليمة أو كالسليمة .

— وسكتت جدتي قليلاً ثم قالت : ان ذكرتِ
« إنجساس » جدتك يا ابنتي فلا تذكريها إلا بشدة
إحساسها بالكرامة وعزة النفس .

قلت : جدتي ، كنت أذكرها دائماً إلى اليوم
بذكرى جميلة غير هذه ، كنت أذكرها بقصة ما زلت
أسمعها من أمي منذ كنت طفلة ، فقد قالت لي أمي إنه
لما اشتدت بها الآلام يوم ولادتي خرجت « إنجساس »
جدتي إلى الشرفة في مطلع الفجر ودعت ربها قائلة :

« إلهى افتد ابنتى بى ، ونجها من هذا العذاب .
وكان أن وُلِدْتُ وُسِّيتُ اسماً اختارته لى جدى
« إنجساس » وبعد ولادتى بأربعين يوماً توفيت جدتى ،
لأن دعاءها فجرَّألم يخطئ ، بل أسرع طريقه نحو السماء »